



رواية

المليونير

محمد ناجي



# الأفندي

رواية

محمد ناجي



كنت من أحباب الله مثل كل الأطفال، لكنني فقدت ذلك. أعتقد؛  
الجميع أيضا، يحدث ذلك بالتدرج.

أظن أن ما يميّزني عن غيري هو أنني أعرف كيف يحدث  
ذلك، إنه يبدأ من اللحظة التي تكتشف فيها أن لك اسما يخصك،  
شيئا يميزك، يوما بعد يوم تزداد ابتعادا، ينقطع الخيط.

كانت أمي سعيدة بالاسم، تتنفسه في فرح وهي تُلقني إياه:  
— أنت .. "حبيب الله".

تتأني بعد "أنت" كأنها تنتظر وحياء، أتلقّي الوحي معها ثم أحبو  
فرحا، أمص إبهامي في الركن البعيد، وأتأمل نقطة الضوء، فقاعة  
الضوء، "حبيب الله".

لا أتذكر ذلك، وإنما أتخيله.

حبيب الله الأفندي.

اختارت أمي الاسم، واختار الناس لي اللقب، أجمعوا عليه  
كأنهم يقرؤون من كتاب واحد؛ "الأفندي".

محا اللقب المكتسب لقباً أصليا مشهورا؛ "الذكر". لا يقلقني

الأمر، "الدّكر" أو "الأفندي" ما الفرق؟ .. أظنُّ؛ لا فرق.

هوّن علي التخلي عن اللقب الأصلي أن عمّي شكك فيه؛ قال:  
— تبدو العائلة كأنها كبيرة جدا، ففي كل مكان نسمع لقب  
"الدّكر"، لكن الحقيقة أن هذا "الدّكر" من سلالة غير ذاك "الدّكر" ولا  
قراية بينهما. كيف؟.. أتعرف كيف؟

طرح الفزورة ثم حلها:

— "الدّكر" في الأصل اسم مقهي؛ "قهوة الدّكر"، كل من جلس  
عليه لخدمة الحريم أسماه الناس "الدّكر"؛ حمروش الدّكر، عياد  
الدّكر، سرامح الدّكر. كل واحد جاء من مكان غير المكان ومن  
أصل غير الأصل، لكن كله عند الناس "الدّكر".

ونبّهني بحسم:

— نحن أولاد حمروش، حمروش الدّكر، أشهر من جلس علي  
المقهي في زمانه، لكن أصابه خبال العشق في أواخر أيامه، ربك  
يحفظنا.

\*\*\*

يحكي عمّي الكثير عن جدنا حمروش، يحكي دائما. التصقت  
خيالاته بذاكرته وأصبحت جزءا منها؛ يحكي كأنه يتذكر بجد.  
أزوره أحيانا، أنساه سنوات، وأتذكره فجأة. ربما لا يزوره  
غيري. أتوقع كل مرة أن يخبرني أحد أنه مات، لكنني أجده في

مكانه دائما. أظن أنه سيظل هكذا يدير الكرة بأصابعه ويحكي.  
يقيم عمِّي في أحد الدروب المتشابكة خلف سور المدينة  
القديمة، يسكن غرفة ناتئة من منزل ذي طابقين. وضَّعها شاذ؛  
كأنها كانت محشورة في الطابق السفلي ولفظها خارجه، تلتصق به  
لكنها تبدو وكأنها ليست جزءا منه. لا يستطيع سكان الطابق العلوي  
أن يستفيدوا من سطحها حتي كشرفة، سطحها محدَّب كأنه سقف  
قبر. ربما كانت في زمن ما زاوية للصلاة.  
يسكن الغرفة ولا أعرف لمن يدفع إيجارها. لا أعرف كيف  
يصرف أموره أصلا، ولا أسأله عن ذلك حتي لا أحمل نفسي  
مسئوليات لا أريدها. ألاحظ وأسكت.  
كل زيارة أحمل معي طعاما. أغيب وأرجع، فأجد الطعام في  
مكانه، أرمي القديم وأضع الجديد.

يقول لي :

— لا تحمل همي.

ليس في الغرفة شيء تقريبا، فرش وغطاء، ونموذج دوّار للكرة  
الأرضية من ذلك النوع الذي يشرحون عليه دروس الجغرافيا في  
المدارس.

لا أعرف كيف وصلت الكرة إليه. ربما سرقها لص من  
مدرسة أو من أحد تجار الأدوات المستعملة، وأخفاها في هذا

المكان دون أن ينتبه لوجود عمّي. أخفاها ونسيها.  
يفرح عمّي بزياراتي النادرة، يفرح بطريقته الخاصة؛ يدير  
الكرة بأصابعه، ويحكي:

— جدك حمروش كان سيد رجال المقهي، يلف الشال  
الحريري المطرّز بالورود علي رأسه، ويبرم شاربه. يجلس علي  
الأريكة الكبيرة قرب الزير والكوز وشجرة الخروع، وتكة لباسه  
تلمس الأرض. أول رجل تطلبه النساء للخدمة جدك حمروش،  
وأعلي سعر بين ذكور المقهي لجدك حمروش.

قبل أن يجلس للخدمة كان تحته أربع نساء، لكن نفسه زهدت  
حلالها. طلق الأربعة في يوم واحد ونذر نفسه للخدمة، جلس علي  
مقهي "الذكر"، ولهذا سمّاه الناس "الذكر". أما اسمه الحقيقي فهو  
حمروش.

يلقنني عمّي الاسم، ويصر علي أن أردده خلفه:  
— حمروش.

\*\*\*

حمروش، الأفندي، الذكر؛ لا يقلقني الأمر.  
اخرت الأسهل. طبعت اسمي ومهنتي بالعربية والإنجليزية  
علي بطاقة التعريف: "حبيب الله الأفندي... مرشد سياحي".  
أمارس المهنة بدون ترخيص. دراستي لم تؤهلني لذلك؛

بكالوريوس علوم. ثم أن ما أمارسه هو نوع مخصوص من الإرشاد السياحي لا يحتاج إلي تصريح من أحد. اختار زبائني بنفسي، وأحدّد طبيعة عملي بمزاجي، مرشد خاص جداً.

مثلي يسميه الناس "خرتي"، والشائع أن الكلمة يونانية الأصل، لكن صديقي الشاعر العارف باللغة فايز ناصف أخبرني أن الكلمة اليونانية المقصودة وهي "خريتوس" جاءت أساساً من الكلمة العربية "خرّيت" أي الدليل الحاذق والمرشد الماهر، وقال لي:

— كلنا بهذا المعني خرتية.

عموما هي كلمة كريهة، تنطوي علي استخفاف، ولا أحب أن يطلقها أحد علي. من حسن حظي أن الناس اختاروا لي تسمية أفضل؛ "الأفندي".

\*\*\*

هي كانت تسميني "وعدي":

— كيف حالك يا وعدي؟ مشتاقة يا وعدي..

أحيانا تغيب طويلا، ثم تظهر فجأة . أسمعها تتنادي بين مقاهي

الخان:

— آه يا "وعدي".

تقول إنه نداء يخصني، وتحلف:

— صدّقني؛ أنت وعدي، هذا هو اسمك المكتوب عند ربنا،



اسمك الحقيقي.

تقترب فجأة، وتبتعد فجأة:

— ابعد عني؛ أخاف عليك مني.

أفهم هذا البرنامج جيداً؛ تقترب منك حتي تتلبسك وتسكن أنفاسك، ثم تغادرك فجأة، وتتركك بلا روح، لعبة الحياة والموت. فهمت البرنامج وحصنت نفسي ضده. أتركها أحيانا تلاعب نفسها.

\*\*\*

نازك، هذا اسمها. تقرأ خطوط الكف والفتجان في مقاهي الخان وردمات فنادقه المتواضعة. تحدثني وتحدث الناس بأسلوب غريب وتعبيرات غامضة. تدعو لزيائنها:

— ربنا لا يحرملك من نارك.

أتعجب من دعائها الناري فتشرح لي:

— أنا أدعو له بطول العمر.

طلبت منها مرة أن تقرأ كفي فأعرضت:

— لماذا كفك أو فتجانك؟ كل شيء مكتوب علي جبينك.

— وما المكتوب؟

— حزنك أطول من عمرك، قلبي عليك يا قلبي.

تحدثني عن الحزن، لا أحس بمعني الكلمة. أظن أن الحدود الفاصلة بين الحالات تلاشت عندي، الحزن والفرح، الرفض

والرضي، أتلقى كل الحالات بحياد. أتساءل أحيانا عما يمكن أن يحزنني، وأحاول أن أتخيل كيف يمكن أن يكون حزني.

لم أكن أهتم بفحص كلامها، لكنني دائما أرى الحياة في بياض عينيها الفسيح، تلك الرعشة الملساء التي تسري في دائرة البياض، وتشى بأفعي بيضاء عملاقة تنمطي تحت بشرتها النحاسية. أعترف أن فحيحها يرعيني أحيانا:

— يا وعدي.

\*\*\*

أتذكر أن أبي لم يهتم باسمي، كان يتقادي أن يسميني:

— تعال يا ولد.. اسمع يا ابني.. خذ يا حبيبي..

هكذا علي الدوام.

عموما كان رجلا عاطفيا حتي في تعامله مع الناس، يناديهم

بنفس الطريقة:

— يا عمي .. يا سيدي.. يا خالتي.. يا بنتي..

حتي أمي كان يناديها "أم الولد". ينادي ويصفق بيديه ليأفت

انتباهها، فهي دائما شاردة، مشغولة بأعمالها.

أنا كنت أناديها "ماما"، ويسميها الناس "ملاك". هي كانت تشبه

شيئا مثل ذلك فعلا حين تقف أمام الشباك المستدير في غرفتنا،

ونور الشباك يرسم حول وجهها هالة القديسين. يتألق المشهد كلما

زادت العتمة الداخلية وزاد وميض أضواء الشارع.  
أنجذب إليها بجنون إذا صادفتها علي هذا الحال، أعدو نحوها،  
فترفعني لأضع نفسي معها وسط الهالة:  
— أنت.. حبيب الله.

\*\*\*

ننام أنا وأمي في الغرفة الوحيدة علي سرير خشبي. وينام أبي  
وحده في صالة المدخل علي إحدي الأريكتين المتقابلتين.  
لا أعرف لماذا كانت أمي تتقاده، ترده عن باب غرفتنا  
بلطف:

— شغل البيت أتعني، وأريد أن أنام.  
الشغل كثير فعلا؛ غسل وطبخ ومسح، لكن لا أظن أن تعبها  
كان وحده السبب.  
أبي لا يهدأ إلا بعد منتصف الليل بكثير، يظل متحركا قرب  
الشباك الحديدي المستطيل في صدر الصالة. يفتح الستارة ويطفئ  
النور، يكتفي بلمسة شاعرية تبتها الأضواء المنبعثة من بيوت  
الجيران.  
وهو لا ينام إلا علي صوت الراديو، السكوت يقلقه. يصحو  
من نومه ليبحث في مؤشر الراديو عن محطة بعيدة لا يزال فيها  
صوت، أي صوت.

أمي عكسه، تحب الهدوء وتنام من أول غمضة، وإذا صحت  
لحاجة تنهض من فراشها كالمسحورة، تشرب أو تذهب إلي الحمام.  
أحيانا تتخبط في طست الغسيل أو واپور الجاز، لكنها لا تفتق أبداً،  
تظل في نومها، تتحرك به.

أحيانا توقظني حركتها فأترقب عودتها، وحين تكون أمام  
الشباك المستدير بالضبط، أفز نحوها لأضع نفسي معها في هالة  
القديسين.

\*\*\*

تنام أمي مبكرة وتصحو مبكرة. أصحو معها تقريبا علي  
صوت أغنيات الصباح وهي تنساب من شبابيك الجيران:  
– "يا صباح الخير باللي معانا..".

أفريق وهي تطرّع أصابع يديها وقدميها وتعد قهوتها. أراقب  
طقوسها الصباحية بنصف عين، ثم أنهض لأتناول إفطاري وأستعد  
للذهاب إلي المدرسة.

تصحبني في طريقي إلي الباب الخارجي عبر صالة المدخل،  
وتناولني مصروفي من جيب أبي. يكون هو ممدداً علي الأريكة،  
والراديو يزن علي طاولة عالية. جنب الراديو دائماً بقايا زجاجة  
كيانا وعلبة سجائر. تغلق أمي الستارة وتغطيها، ثم تمضي إلي  
الردهة الداخلية بين الغرفة والحمام لتبدأ أشغالها اليومية، أما هو

فلا يبدأ عمله في صالون الحلاقة إلا بعد الظهر.

أبي معروف بين الناس باسم "سي كلام"، دعابة انقلبت إلي  
جد. ظلت علي ألسنة الناس طويلا قبل أن يسجلها النقّاش رسميا  
علي واجهة المحل: "صالون سي كلام".

كان عمل النقّاش تطوعيا، لم يتقاض جنيا عن جهده، وربما  
لهذا السبب أعطي نفسه الحق في تدوين الدّعابة بهذا الشكل الفج  
علي واجهة المحل.

أتذكر أن ذلك حدث يوم ظهور الحاج حسين جوهر. كان دهان  
واجهة المحل جزءا من طقوس الاحتفال ، وتطوع النقّاش بذلك من  
باب المجاملة.

كان الحاج حسين يقترب من الثلاثين، أهملت زوجة أبيه  
اليونانية ختانه، وهو قرر إجراء العملية قبل زواجه الأول ، بل  
وأصر أن يكون الطقس احتفاليا. ربما انطوي ذلك علي اعتزاز  
خاص بأمه المسلمة التي ماتت وهي تلده.

لم يغضب أبي طويلا من النقّاش، خفتت دعايات الزبائن حدته،  
فضحك معهم في النهاية.

عموما كان أبي نموذجا حقيقيا لرجال المهنة بهندامه وبطئه  
وثرثرته. يفخر بأنه تعلم الحرفة في "صالون الأكابر"، ويقول أنه  
كان أهم وأشهر صالون في البلد:

— جامعة في فنون الحلاقة، وأنا تعلمت بصبر حتي حصلت  
علي الدكتوراه.

رأيت المحل بعد ذلك بالصدفة علي حافة سوق العتبة؛ ضيق،  
لا يتسع لأكثر من كرسي وصبي يتحرك بمنشة الذباب حول  
الزبون، وأمامه دكة انتظار لا تتسع إلا لاثنين بالكاد.

\*\*\*

يستحق أبي لقبا مميّزا، وكان "سي كلام" الأكثر بريفا، جرب  
الناس قبله ألقابا كثيرة ولم يصمد أي منها أمامه.

كان أبي جاهزا دائما للكلام في أي موضوع حتي أسرار  
السياسة. يعرف القليل ويكمل بطريقته، ويраهن علي صحة  
إضافاته. يتحدث عن الحكام كأنهم أصحاب طفولته، يعرف ما يدور  
في رؤوسهم، ويدعو لهم بالنصر.

يوم تأميم القناة وزّع الشربات، وفرقع بمبة الكلام في وجوه  
الزبائن:

— كنت أعرف ما يخطّون له، لكنني تجنبت الكلام في  
الموضوع حتي لا أفسد المفاجأة.

كنت آنذاك في الرابعة، حضرت المشهد ولم أقدر علي فهمه،  
لكنني أحس بالخجل حين أستعيده الآن، وأتذكر أبي وهو يتعثر  
بأكواب الشربات بين أقدام الزبائن الضاحكين ويحلف:

— والله عارف، وأخبركم منذ الآن أننا سنبنني السد.

بعدها ظل الناس يذكرونه بالواقعة. حاولوا أن يسموه "سي  
عارف" وجربوا أيضا "سي مش عارف"، لكن "سي كلام" اكتسح كل  
الألقاب بعد ذلك، محا ما قبله من ذاكرة الناس، وترجع بألوان الزيت  
علي واجهة الدكان.

رغم كل شيء كان أبي ثرثارا خفيف الظل، يعامله الناس  
بسماحة ولطف. حتي سهراته الفاضحة قرب شباك الصالة الحديدي  
لم تزعج أحدا. كانت الجارات يترقبن ظهوره في مرح، يغلقن  
الشبابيك واحدة بعد الأخرى، ويتبادلن التحذيرات. يفعلن ذلك بخفة  
دم ورقاعة بنات البلد:

\* طفيّ النور يا بنات، القمر ظهر في الشباك.

\* كل واحدة تداري شمعتها.

\* عين الحسود فيها عود.

حتي بالنسبة لرجال الجيران ظلت المسألة مجرد فكاهة، يقول  
له أحدهم:

— امرأتي قلقة عليك، لاحظت أنك لم تظهر في الشباك منذ



يومين، سلامتك.

ويمضي جار في تلميحاته إلي أبعد من ذلك:

— لامؤاخذه يا سي كلام، لا تزعل من إغلاق الشبابيك في

وجهك، حريما تخاف علي رجالها من الحسد.

يستدرجه بعض الخبثاء أحيانا إلي موضوعات حساسة، ولا

يمسك هو عن الكلام. يتمهل قليلا ليتأكد من عدم وجودي بالدكان،

وإذا تصادف وكنت موجودا ينزع منشة الذباب من يدي، ويصرفني

إلي البيت بأي سبب يختلقه. أحيانا يحفزني بقرش:

— اشتر لنفسك حاجة حلوة.

غالباً أضع القرش في جيبتي واستدير بعد أربع أو خمس

خطوات، أكن خلف باب المحل وأتسمع ما يحكيه. لم يكن يتردد

في الكلام في أي موضوع حتي أمي. تصوروا؛ حتي أمي، وأدق

التفاصيل.

اعتدتُ ذلك التتصت، واعتاد أطفال غيري ذلك، هددوني أن

يشوا بي لأبي إن منعهم، فرضخت للتهديد. اكتشفت بعد فترة أن

وجودهم يحميني، ففي المرات التي ضبطنا فيها أبي تاهت نظراته

بيني وبينهم.

في النهاية صارت المسألة لعبة؛ يطاردنا أبي من حين لآخر،

ويحزن جدا حين يراني بين الأطفال المهرولين:

– حتى الولد!!

ظلت الحكاية كلها في إطار الفكاهة، لم تُغضب أحدا. كانت الجارات يتندرن أمام أمي دون حرج ودون انتباه لوجودي، وهي تبتلع ابتسامة حزينة، أو تتهرهن ضاحكة:

– مم نتشاكين يا بنات؛ لا النظر ينقض الوضوء، ولا الكلام.

أمي نفسها لم تسلّم من تلتصّصه، تسمع صرير الباب في ظلام الليل فتتفرض في السرير، وتقطع طريقه علي العتبة:

– ماذا تريد الآن؟!..! كنت تريد الولد، وأنا أنجبت لك الولد،

أعطيتك كل ما كنت تريد، فدعني في حالي.

سمعت الحوار المتكرر. لم أقصد أن ألتصّص، لكنني سمعت خلصة وبعيون مغمضة متناومة. أتعجب للكلام، وأتعب أكثر مما كان أبي يحكيه للزبائن؛ متي حدث كل ذلك بينهما؟!!

عموما لا أظن أن أبي كان سعيدا بأمي، لكن ربما كان فخورا بها، بأناقته واطرانها. يبدو ذلك واضحا عندما نخرج جميعا في مشاوير مفاجئة، عزاء أو تهنئة أو طبيب.

تتأق أمي عادة عندما نخرج من البيت، فستان وحقية وإشارب ونظارة. تزيد الأناقة حسب طبيعة وأهمية المشوار؛ الأفراح غير التعازي، والخروج للسوق غير الذهاب للطبيب.

دائما في ذهابها للطبيب لمسة إضافية، كان أهم شخصية

نعرفها.

\*\*\*

عندما مرض أبي وسدّت حصوات الكلي مجري البول كانت أمي تصحبه إلي الطبيب ليجري له عمليات قسّرة. هو كان يحرص علي ذلك، ويقول لها:

— الرجل عالجك زمان، ولك عنده كل ود واحترام.

كان الطبيب رجلا ودودا مفرطا في اللطف، يستقبلنا بترحاب كأننا نجامله بالزيارة. يرفض أن يتقاضى أي فلوس عن خدماته، يرد أمي بحسم، ويظل ممسكا بيدها المطبقة حتي تلين قبضتها وتتخلي عن فكرة الدفع:

— تخرجنا دائما بكرمك.

— لا أنسي أفضالكم علي أبدا، يكفيني شرف الزيارة يا ملاك هانم.

أمي "ملاك هانم"، وأبي يتصرف مع الطبيب بتواضع يخجلني، يتلاشي تقريبا. يطأطئ ويقلب وجهه بابتسامة خجلي متألمة بين المتحدثين عن يمينه ويساره، أمي والطبيب. وحين يحاول أن يشرح ما يعانيه يتلعثم طويلا قبل أن ينطلق لسانه:

— يا سيّدي الدكتور.. يا سيدي الدكتور..

في النهاية كان أبي حلاقا، أقصى حدوده من العلم ظهور

الصبيان، وكان هذا طبيبا يعرف كل شيء ، ربما كان أبي يحس أنه ليس أهلا لكل هذا الترحيب.

نعود من تلك المشاوير أكثر بهجة، أمي وقد أدت دورها باقتدار، وأبي وقد تخلص من بوله المحبوس في المثانة. يرمق الناس أمي المتأنقة بإعجاب، ويحيون أبي بمحبة وأشفاق:  
— سلامتك يا "سي كلام".

\*\*\*

ماتت أمي فجأة.

أتذكر الآن أنها ظلت تعاني من شيء لا أدركه قبل موتها بأيام.  
تكتمت متاعبها بصمت حاسم، وماتت بنزيف حاد في الرحم.

\*\*\*

دفننا ماما ملاك في مقابر الصدقة، لم يكن في مدفن عائلة "الدكر" مكان للنساء، ربما لم يكن في الذرية نساء أصلا.  
دفناها بين عظام نساء غريبات لا نعرفهن. كنت خجلا، وكان أبي حزينا ودامعا، ظل يلوم نفسه:

— أمك ماتت وهي زعلائة مني لأنني رهنتها بالولد. عشر سنوات وهي تحاول، تعبتُ وفعلت الكثير حتي أنجبتك. أنا فكرت في الزواج عليها من أجل ولد آخر، وهي لم تسامحني.  
يحتضنني بحنان، ثم يطلب لها الرحمة:

— .. واغفر لها، واستر خطاياها يا أرحم الراحمين.

\*\*\*

— آمين.

مررنا بعمِّي في طريق عودتنا من المقابر، كانت أول مرة أراه. وجدناه نائماً في جلسته، يداه متكورّتان في حجره، ورأسه منكفئ على صدره، وفوق شعر الرأس واللحية غبار وخيوط عناكب؛ واضح أنه نوم طويل.

نفض أبي التراب وناداه:

\* السلام عليكم.

\* السلام عليكم.

في كل مرة رفع رأسه وتثاءب، فتح عينيه وتقلبت نظراته في داخله، ثم أطبق فكه الأهنم وجفونه المجعدة، وطأطأ رأسه ونام. مع النداء الثالث، أدار أبي الكرة البلاستيكية المتربة، فانبعث لدورانها صوت كأنه حفيف أجنحة.

\* السلام عليكم.

هذه المرة؛ نظر عمِّي خارج نفسه، فانبسطت أساريه لمرأى

الكرة الدوارة:

— إنها تدور، مازالت تدور.

— أم الولد ماتت اليوم، وهذا هو .

— وهو الحيّ، وحده الحيّ .

حدثه أبي عن النزيف والموت المفاجئ، لكن عمّي لم يهتم بما يقول، ظل مشغولا بلعبته، يدير الكرة بأصابعه ويحكي عن جدنا حمروش الذي عشقته الجنية .

حكي عمّي :

— ياما جري لجدنا حمروش، وياما حكي الناس عن سيد السباع علي مقهي «الذكر» . كان المقهي خلف أسواق للذهب والحريير والكتان . بعض النسوان يتسترن بالأسواق، ويتسلن إلي المقهي ليواعدن الرجال .

كل ذكر جالس علي أريكة وحده كأنه السبع في عرينه، وجدنا وسطهم في أعز مكان، جنب الزير والكوز وشجرة الخروع، أعلي من الكل، وأغلي من الكل . كل ليلة يوفي وعده، وصاحبة الوعد تشكره وتزيد أجره، ثم تصرفه قبل أن يصيح ديك الفجر، وتسأله علي عتبة بيت الستر :

— لو صادفتي مرة أخري؛ هل تعرفني من بين النسوان؟

يبتسم للكلام، ويمضي لحاله .

كل ليلة وجه جديد؛ رسم غير الرسم، واسم غير الاسم؛

سميحة.. مديحة.. صبيحة، لكنه يسمع نفس السؤال :

— لو صادفتني ؛ هل تعرفني من بين النسوان؟  
ليلة بعد ليلة لفت السؤال انتباهه، صار يتمهل في رواحه بين  
البيوت والشجر، ويفكر في السؤال الغريب، مع آذان الديكة  
وتساييح الفجر.

ليل بعد ليل بعد ليل، وفي آخر الليالي جري له أمر غريب.  
دخل علي سرير الوعد يزأر كما الأسد، برم شاربه ومد يده  
ليشق القميص ويكشف اللحم، كانت هذه طريقته المميزة. لكن في  
تلك الليلة ظلت يده ممدودة في الفراغ؛ المرأة قريبة من العين لكن  
بعيدة عن اليد، وكلما يقترب تبتعد.

ساعة، ساعتان، ثم كف عن المحاولة. حطَّ عمامته علي رأسه،  
ولبس لباسه ومداسه، وانصرف قبل منتصف الليل. وصاحبة الليلة  
علي سرير الوعد تتقلب وتضحك لنفسها، لا قامت تودعه علي  
الباب، ولا سألته السؤال الذي سمعه من كل واحدة قبلها.

ست ليال وهو يتعجب مما يجري له؛ يذهب للمواعيد ويرجع  
بناره، وما حدث آخر ليلة يتكرر كل ليلة، وصاحبة الوعد لا تقترب  
ولا تسأل، وهو يرجع للمقهي، يطأطي رأسه أمام معلمه، ويرد  
الفلوس.

في الليل السابع غلبته الظنون. نسي لباسه ومداسه في بيت  
الوعد، وانصرف فزعا عريانا، وما علي جسمه غير العمامة



الملفوفة بالشال الحرير. دار في الشوارع يفكر، ولما تعب نام علي  
الأعتاب، وفي منامه رأي وانكشف الحجاب.  
رأي صاحبة الليلة واقفة علي رأسه، رمت فوقه لباسه  
ومداسه، وقالت له:

— كانت هذه آخر الليالي بيننا.

قال لها وهو نائم:

— ليلة ومرت.

قالت له وهي صاحبة:

— كانت ليالينا كثيرة، ليلة بعد ليلة وأنت ما عرفتي.

قال لها وهو نائم:

— لا أتذكر أنني رأيت هذا الوجه قبل هذه الليلة.

قالت له وهي صاحبة:

— عيبك أنك تهتم بالتذكر، ولذلك لا تعرف.

وكشفت سرها:

— أنا سميحة ومديحة وصبيحة وكل امرأة واعنتها، جئتك

بألف اسم ورسم، وأنت ما عرفتي.

— أنت غيرهن.

— أنا كلهن، ولو عرفت لفزت.

الآن فهم؛ الجنية.

قام من منامه يتطوح من الحيرة وسط صياح الديكة وتساييح  
الفجر. ذهب لمعلمه فوجده نائما علي باب المقهي، هزه في رقاده،  
واستأذنه في الكلام، وجلس علي أريكته ينتظره حتي قام. ولما قام؛  
ركع علي رجليه وباح بما جري له.  
سمع المعلم كلامه وقصة منامه، ثم نظر للفضاء المضئ  
وسأله:

— الفجر بان؟

— طلع وبان من زمان يا معلم.

سحبه المعلم من يده إلي خارج المكان، ثم ربّت كتفه وقال له:

— اسمع يا ابني؛ طريقك الآن غير طريقنا، فاذهب لحال

سبيلك، الله يفتح عليك.

\*\*\*

كنت آنذاك في الإعدادية، عمري خمسة عشر عاما. لم أغفر  
لأبي صبره علي سماع مثل هذا الكلام يوم موت أمي، وخبنت أن  
عمي مخبول.

زاد خلتي.

\*\*\*

طال حزن أبي.

كانت هناك أسباب أخري للحزن؛ الحرب.

أسقطت الهزيمة السريعة رهانات أبي، كان خجلا من زبائنه،  
يتعثر بالمشط والمقص في رؤوسهم، ويهرب من حسم الكلام.

— ما آخر الأخبار ياسي كلام.

يُجادل ويُفتي كعادته، لكنه لا يبدو واثقا، وآخر حديثه دائما:

— الله معنا.

ينشط حين يأتي جنود للحلافة. يمحو شعرهم بماكينة "الزيرو"،  
ويسعد بفلوسهم القليلة، وبأحاديثهم عن الاستعدادات الحربية، ثم  
ينفض الفوطة ويودعهم داعيا:

— الله معنا.

كنا نقرأ هذه العبارة كثيرا علي مؤخرات عربات النقل التي  
ضمها الجيش للمجهود الحربي، نقرأها كأمر عسكري صارم لا  
يقبل الجدل، لكن أبي كان ينطقها همسا وهو يرفع رأسه إلي  
السماء، مجرد دعاء.

\*\*\*

أنا لم أهتم كثيرا؛ كانت الحرب تدور في الصحراء بعيدا عنا،  
ومدينتنا تسهر ليالها كما تعودت دائما. أحزنتني فقط أن اللون  
الأزرق طمس الهالة المضيئة في شباك غرفتي المستدير.

أضع نفسي أحيانا في الهالة الزرقاء، وأأمل صورتي في مرآة  
التسريحة علي الجدار المقابل، وأتذوق اسمي علي مهل:

— حبيب الله.. حبيب الله..

كنت مشغولاً بنفسي، أتأمل ألوان الأحاسيس التي تتفجر  
داخلي، وأراقب شعر الرجولة النابت في وجهي، وأتحسس نقل  
أعضائي النابضة.

أذوق نفسي في الأحلام، وأقوم وفي فمي طعم حريق.

\*\*\*

تحيرني الأحلام، حتي الآن تحيرني.

كيف أشرح الأمر؟

في باطن كل حلم ذكريات ترافقه، لا تظهر في مشاهد الحلم،  
لكنني أحسها تتحرك في باطنه. ذكريات لأماكن وأحداث كأنني  
عشتها في عمق أبعد من الحلم، لكنها تبدو في قاعه حقيقة لا تقبل  
الجدل.

كانت ترقد في باطن أحلامي في تلك الفترة ذكريات حلمية لا  
أعرف من أين تأتي؛ رائحة حريق، وعجوز وحيد أشيب يجلس  
علي كرسي بالمقلوب، يسند ذقنه علي كتفي الكرسي، وعيناه  
شاخصتان بلا اتجاه ولا حركة.

لا أري الرجل في مشاهد أحلامي، وإنما أتذكر دائماً أنه كان  
"هنا"، وأتقادي النظر إلي المكان.

أتذكر الآن أنه كان يشبهني، ربما بخضرة العينين.

\*\*\*

كانت نازك تري في خضرة عيني ظلا أحمر. أنا لم ألاحظ ذلك في وقوفي الطويل أمام المرايا، ولم يلاحظه أحد غيرها، لكنها تتحدث عن ذلك دائما:

— سمعت الكثير عن العيون الحمراء، لكن هذه أول مرة أراها.

أحرش بها وهي عائدة من الخان ببقايا عقود الزهور التي تتبعها علي الأرصفة، وهي لا تطاوعني، أقصد آنذاك طبعاً. كانت في مثل سني وربما أصغر، لكن فوران جسدها كان مدويا. لا أبالغ ان قلت إنني كنت أشم عصائرها الداخلية عن بعد، شهوة فواحة، مزيج من رائحة خميرة الخبز والقرنفل الطازج، عميقة وحارة.

أعترض طريقها فتتفلت من يدي وتهرب من نظراتي:

— ابعدي عيني، جواك نار جهنم.

تجري مني، لكنني أراها مع غيري، وأسمع من الناس أيضاً. وأجهها بما أعرف فلا تتكر وإنما تبعد وترد:  
— لم يأخذ أحد مني، أكثر مما أخذت أنت.

أفكر وقتها أنها تسرف في نزواتها الصغيرة لدرجة أن الوجوه والأسماء تتشابه عليها، كنت أظن ذلك فأذكرها بنفسي، وأسألها:

— أنا حبيب الله، ماذا أخذت منك؟!

— أخذت الكثير يا وعدي، ويا لبتك ما أخذت.

— ماذا أخذت؟!

— بكره تعرف.

\*\*\*

ملعون أبوها.

\*\*\*

لا أعرف لها أبا، لكنني أعرف أمها؛ "أم لسان" العجربة. كانت ردّاحة مشهورة أيام كانت معارك الكلام مهنة للنساء الفقيرات. يؤجرها الناس لثمت خصومهم فتقطع طريق الأعداء بالردح علي مداخل الحارات. حين بارت المهنة اشتغلت بقراءة الطالع، ولما ضعفت صحتها جاست تتسول قرب باب الفتوح. كانت تتسول بطريقتها، تردح وتشتم كل من لا يعطيها. لم يسلم منها خارج ولا داخل من البوابة، حتي العسكر تردح لهم: — "عاملين رجّاله، وجيوبكم فاضية!".

أحيانا يختلط الأمر عليها، فتأخذ الصدقات وتردح أيضا:

\* ربنا ما يقعدك علي باب جنته.

\* ربنا ما يقويك علي مرة.

أحيانا يرق قلبها لعابر سبيل عجوز، فتسمح له بالجلوس جنبها

لنتسول به. تأخذ الصدقات لنفسها، وتناوله المحارة التي تحتفظ بها  
دائماً، وتتصحه:

— وشوشها، وضعها علي أذنك، ربما تسمع كلمة تنفَعك.

\*\*\*

وشششش..

\*\*\*

يزعجني وشيش الراديو في الليل.

يتداخل الإرسال، وأبي يحاول أن يبحث عن أم كلثوم في  
محطة بعيدة. يضبط المؤشر ثم يسهو عن الصوت فتتداخل  
المحطات مرة أخرى، غناء، وأخبار، وتعليقات.

أنهض من غرفتي لأضبط المحطة أو لأخفض الصوت،  
فأجد أبي علي أريكته المعتادة شاردا في أفكاره وسط الفوضى،  
يرشف الكينا علي مهل، واللون الأزرق في شباك الصالة يصدُّ  
نظراته عن بيوت الجيران.

ألاحظ أنه تغير كثيرا، يبدو أكبر سنا وأثقل هما. يتركني أفعل  
ما أشاء بالراديو ثم يطلب مني أن أجلس جنبه، ويشغلني بأخلاق  
أحاديث حول الموت والحرب.

يتلعثم وهو يتحدث عن أمي:

— أمك عذبتني طويلا وأنا أيضا عذبتها. بخلت بطنها بك

عشر سنوات. أنا كدت أجن، هددت بالطلاق. هي كانت مكسورة الجناح، دارت علي العطارين والساحرات، ثم لجأت للطبيب. هي أيضا كانت تريد، المشكلة تخصّها.

يوم ولدتك كدت أطير من الفرحة، أما هي فكانت حزينة، لا أدري لماذا. طلبت من القابلة أن تتاولني لفة المولود، ثم كشفت حمامتك بيدها وقالت لي: "هذا هو الولد الذي كنت تريد". بعدها خاصمتي، عاشت بخصامها خمسة عشر عاما، وماتت بناورها. عذبتني وعذبتها لكنها ماتت بقيمتها. قيمة المرأة أن تتجب ولدا، وهي أدت دورها.

لا ينتهي حديث أبي عن أمي عند هذا الحد، حكي لي أنه كان يتمني أن ينجب ولدا آخر، بل وفكر في الزواج من غيرها من أجل الولد. هي لم تكثر بذلك، بل وكانت مستعدة أن تخطب له بنفسها. قال أبي:

— أمك وافقت، لكنها نبهتني أن العمر يجري وربما أكون قد تأخرت، ونصحتني بإجراء بعض التحاليل حتي لا أنفق فلوسي علي الفاضي في الزواج الثاني. حلّلت، كانت تحاليل الرجال قد أصبحت شائعة ولا تُخجلُ أحدا، لكن الطبيب قال لي: "يكفيك الولد الأول".

فهمت؛ ضاعت الفرصة، ولم تعد في ظهري بذرة حية.



\*\*\*

تشغلي أحاديث أبي الليلية عن المذاكرة، بل وتشتت أفكارني.  
تقلقي.

واضح أن أبي فقد البهجة، حتي حرب العبور لم تجدد حماسه  
للكلام في السياسة. كان يفقد حيويته وبنزوي عاما بعد عام حتي في  
عمله. قلت فترات وجوده في صالون الحلاقة، ربما كانت قصّات  
الشعر الجديدة سببا في انصراف الزبائن عنه. كان عصر الانفتاح  
يضع لمساته علي كل الرؤوس.

كنت آنذاك في كلية العلوم، وهو كان عاتبا علي كل شيء؛  
الأسعار، والأخبار والغناء وموديلات شعور الخنافس. ينتظر  
استراحاتي من المذاكرة، ويستدرجني إلي أريكته جنب الراديو  
ليثرثر معي، ويشكو من أغاني الزمن الجديد:

— زمان كان كل صوت يطربني، أم كلثوم وعبد الوهاب  
وأسمهان وليلي مراد، حتي صوت عبد الناصر يطربني. العصر  
كله كان عصر طرب؛ طرب سياسي، كله من القلب.  
صوت السادات لا يطربني، عال كأنه ينادي علي بضاعة.  
صحيح هو صريح، يضع يده علي الجرح ويوجعك، لكنه لا  
يرحك. كلامه من دماغه لا من قلبه، فيه حسابات تعرفها  
وحسابات أخري لا تعرفها؛ يقلقك.

غناء هذه الأيام مثل سياستها يتوّهك، حتى كلام الجرائد  
والإذاعات توهان؛ "السح الدح امبو".  
ينحني أبي جنب الراديو، ويهرب بالموشر إلي محطات  
الأغاني باحثًا عن لحن قديم. يسعد إذا صادفه صوت أم كلثوم؛  
يسدل جفونه ويتراجع بخفة عائداً إلي مكانه المعتاد علي الأريكة.  
الراديو قديم والمحطة بعيدة، والصوت يعلو ويهبط كأنه يسري  
علي موج، وأبي يتنفس النغم بعمق، ويهتز من الانفعال في ختام  
المقطع:  
— "ياريتها.. ياريتها دامت أيام".



اعتبرني أبي سنده، وأنا لم أخذله.

كان يزداد انزواء وفقرا. يشيح بوجهه عن كل وعود الرخاء والانفتاح، ويحصي الجنيئات القليلة في جيبه، ويتحسر علي زمن كان فيه الجنيه الواحد يطعم ويكسو ويعالج. يقارن بين أسعار البيض واللحم والخبز في الماضي والحاضر، ويلعن الأيام:  
- الآن؛ الجنيه لا يشتري بطيخة.

أغلب وجوده في صالون الحلاقة جنب الراديو، ينش الذباب وينتظر زبائنه النادرين. أغلبهم الآن عجائز وفقراء مثله، يرضي منهم بالأجر القليل، ويرتاح لكلامهم:

- الإنسان أرخص شيء، لا سعر له، الدجاجة أغلي منه.

يعود للبيت مبكرا، يستحم، ويدهن جسمه بمرهم "فيكس" ليخفف آلام المفاصل. يجلس جنب الراديو أيضا، لكن بعيدا عن الشباك.

كان مفاوضات السلام قد مسحت زرقة الحرب عن زجاج النوافذ، لكن أبي لم يعد يطبق النظر إلي الخارج. يغلق ستارة

الشباك، ويواصل شكاواه وهو يدخن ويلعق حلق زجاجة الكينا  
الفارغة منذ يومين:

— كل شيء تغير في البلد حتي وجوه الجيران؛ لا ابتسامة ولا  
كلمة سلام، كأن الحرب انتهت هناك وبدأت هنا.  
أعامله بلطف، لا أستطيع إلا أن أفعل ذلك. أتودد إليه وأناديه  
أحياناً: "عم بابا".

\*\*\*

لم يفهم أبي التغيرات التي تجري، لكنني فهمت ولاحظت  
الفرص الطيبة المتاحة للكسب بل وللثراء.  
لو أردت أن أقول الحقيقة كاملة؛ فلا بد أن أعترف أن نازك  
هي التي فتحت عيني وقادت خطواتي الأولى علي الطريق. نعم  
نازك؛ تلك البنت التافهة التي تبيع الزهور في الخان.  
حتي ذلك الوقت لم أكن قد اقتربت منها ولا لمستها. هي  
هربت من تحرّساتي زمان، وأنا انصرفت عنها، لم تعد تتاسبني.  
فتحت دراستي الجامعية أمامي عوالم جديدة أكثر بريقاً،  
انشغلت بها، لكن لا أدعي أنني اندمجت فيها. كان لفقري أبي تأثير  
كبير علي مظهري ومصروفي، وكنت أنجح بصعوبة؛ السنة  
الدراسية في سنتين.  
مرت فترة طويلة جداً لم أصادف فيها نازك، سنتان.. ثلاثة،

ربما أكثر. كنت قد نسيتهما تقريبا، ثم ذات مساء وجدتها فجأة في  
حضني.

صادفتها تجري خارجة من الخان، وأنا ذاهب إليه لأشتري  
لأبي بعض لوازم الحلاقة. ألقيت نفسها في حضني، ثم أدارتني إلي  
الخلف في اتجاه جريها، وسحبتي من يدي:  
— خذ هذا الكيس واجر معي بسرعة.

لم أفهم لكنني جريت، شلت صدمة أنوثتها الطاغية تفكيرني.  
— ما هذا؟

— اجر بسرعة، وسأشرح لك كل شيء فيما بعد.  
جرينا، كانت أسرع مني رغم ثقل أردافها. جلسنا نلهث خلف  
السور العتيق قرب باب الفتوح.

رغم حرج الموقف غطت عيني بيدها، وقالت:  
— حول عينك عني، في خضرتها نار تحرق قلبي.  
أبعدت يدها وسألته بحسم:  
— اخبريني أولا ما هذا؟

— دولارات يا وعدي، هل رأيتهما من قبل.  
قربت الورق الأخضر من أنفي لأشمه، ثم بسطته علي  
راحتها:

— دولارات جديدة وحيّة، رائحتها ترد الروح، وحدّها ينبج

مثل السكين .

كانت الحكاية باختصار أنها تشتغل بتغيير الدولارات، تلعب دور الوسيط بين السياح وتجار العملة المستترين في الخان. سعر السوق السوداء أعلى من البنوك، ومكسبها في الدولار الواحد نصف قرش. أحيانا تضايقها شرطة السياحة، فتجري منهم:

— لو أمسكوني يسجنوني ويصادرون الدولارات، بهذلة.

— الأغلب أنك أخذت الدولارات وهربت.

— كيف أهرب، لو عملتها يقطعون رجلي عن الخان.

أصحاب المقاهي التي أصطاد منها السياح يعرفونني ولهم نسبة من عمولتي، لو خنتهم يذبحونني، ثم أنني لست لصة يا وعدي.

وعادت تلاعبني بالورق الأخضر.

— أكسب في تغيير الألف خمسة جنيهاً، مجرد خطوتين

وخمس دقائق بخمسة جنيهاً، وربما أكثر.

وفاجأنتي:

— تشتغل معي، والمكسب بالنص؟

قبُلت.

\*\*\*

قالت إنها ستشرح لي طريقة العمل بالضبط فيما بعد، أما الآن

فلا بد أن نتحرك بسرعة لنخرج من المأزق.

هي وضعتُ الخطةَ وأنا نفذتُ.  
أعطتني اسم تاجر العملة وكان معروفاً، فذهبت إليه وغيرت  
الدولارات بعد أن أعطيته كلمة السر: "تازك سافرت".  
أديتُ مهمتي بإتقان وانتظرتها علي المقهي الذي وصفته لي،  
وهي جاءت بعد قليل بمظهر مختلف تماماً.  
تركناها بعباءة بدوية ومنديل رأس مشغول بالترتر، ورجعت  
لى بينطلون جينز ونظارة شمسية وحقيبة. أعطيتها الفلوس فسلمتها  
للسائح المنتظر بعد أن خصمت العمولة.

\*\*\*

في طريق عودتنا سألتني:  
— لازلت طالبا؟  
— في الجامعة، كلية العلوم، أدرس الفيزياء والفلك.  
— ربنا ينجحك، كبرت يا وعدي.  
نعم أنا كبرت، ولكن هي فارت بشكل جهنمي. لا أستطيع أن  
أقول إنها جميلة ببدانتها وأردافها الثقيلة وبشرتها النحاسية، لكنها  
فوران من أنوثة طاغية تلفحني روائحها.  
— وأنت ماذا تعملين؟  
— كما رأيت أشتغل بالدولارات، وأقرأ الكف والفنجان في  
مقاهي الخان.



— كنت تبيعين الزهور.

— صارت بضاعة كاسدة، الناس الآن لا تهتم بزهور الحياة التي تمسكها بيدها، تتشغل أكثر بالعيب الذي لا تعلمه، تريد أن تطمئن علي مستقبلها، حال الدنيا مقلق، والناس لا يعرفون ماذا يريدون منها.

— وأنت؛ ماذا تريدين؟

— لو أخبرتك؛ هل تسخر مني؟

— لن أسخر.

— أريد حصانا بجناحين، أركبه وأطير في السماء.

— وتهربين بالدولارات؟

— ماذا أفعل بها إن كانت فوق فاكهة السماء، وتحتي ماء السحاب، تماما كما كانت "ستنا".

— وهل هناك حصان بجناحين؟

— ربما كان زمان. كل ما يخطر علي خيالنا لا بد أن يكون، هل هناك شيء أكبر من قدرته؛ سبحانه.

ونصحتني:

— لا تكن كافرا مثله.

لم أفهم كلامها، فسألتها:

— من الكافر؟

— هو "الواطي"؛ كان سلطانا علي كل بر وبحر، لكنه بلا قلب  
ولا اسم. أمي تحدثني عنه دائما، وكانت تلغنه كل صباح وكل ليل  
أيام كانت تعمل "ردّاحة". كانت تشتمه هو ولا أحد غيره، تأخذ  
الأجر من الناس علي قصد يخصصهم، وتشتغل بقصدها هي، تشتم  
"الواطي".

حكيت قليلا. كانت تروي تخاريف أمها بثقة وكأنها تنقل عن  
أفلاطون:

— نحن بنات السماء، ولو ركبت معي الحصان ذا الجناح  
تسعد.

— وأين أمك الآن؟

— "أم لسان" لم تعد تخرج من البيت. تمام وتقوم توشوش  
محارة السماء وتسمع منها، تسمع وتحكي لي.  
ضجرتُ، فغيرت اتجاه الكلام:

— لماذا تلبسين نظارة شمسية في الليل؟

— تغيير منظر، وربما لتحجب عن نظري ظلال جنهم التي  
تشع من خضرة عيونك.

وسحبتي بالكلام:

— لبيست "سبور" ربما يعجبك شكلي.

— تعجيبيني يا بنت من أول يوم رأيتك فيه، لكنك تبعدين

عني، ولا أعرف لماذا.

— يا كذاب، كيف أعجبك وأنت لا تراني؟.. لم ترني حتي

الآن وإنما تري نفسك.

لم أستطع أن أخمن في أي شيء تفكر، ولم أكن راغبا في  
المضي بالحديث في هذا الاتجاه، لكل كلام وقته، ثم أنني لا أريد أن  
أفسد الفرصة المتاحة.

\*\*\*

سألتها عن الشغل، فوعدتني:

— اتفقنا، نعمل معا، وسأعلمك كل شيء.

وسألتي:

— أعرف مكان صالون أبيك، لكن أين تسكن؟

— درب الصايم، أول باب الشعرية، جنب مدرسة خليل أغا.

وأنت؟

— ليس بعيدا عنك، درب الصافي، داخل الحسينية.

\*\*\*

شيكيت إصبعي بإصبعها ونحن نسير جنبا إلي جنب عبر باب

الفتوح، وهي علقت علي الموقف كالمسحورة:

— ما أغرب المكتوب، ضعت مني ثم رجعت في لحظة يا

وعدي، سبحانه.

أنا أيضا كنت أفكر في المصادفة الغريبة، التي يمكن أن تجعل  
لمثل هذه البنت التافهة تأثيرا علي حياتي.  
أعترف أنني كنت خجلا منها جداً، لكنني كنت راغبا بشدة،  
راغبا في كل شيء، كل شيء.

\*\*\*

رجعت لأبي ببطيخة وزجاجة كينا. ظن في البداية أنني  
اشتريتها بفلوس لوازم الحلاقة، لكنه اطمأن حين أعطيته المقصات  
والأمشاط والأمواس:

— اشرب وانبسط يا عم بابا، وكلُّ البطِيخ الذي تحبه، وفرت  
الفلوس من مصروفي.

تكرر الأمر ليلة بعد ليلة فبدأ يقلق:

— من أين تأتي بهذه الأشياء؟

— أشتريها بفلوسي.

— ومن أين تأتي بفلوسك هذه.

— كسبتها في الحرب.

— أي حرب؟

— الحرب التي تقول أنت إنها بدأت هنا.

\*\*\*

— يا ولد لا تحيرني، فالناس لا تجد الفلوس هكذا علي قارعة

الطريق.

قلت له إن البلد "سداح مداح"، والفلوس علي قارعة الطريق  
فعلا، ومن يمد يده يخطف ما يشاء:

— هي حرب الفلوس يا عم بابا، ويجب أن ندخل هذه الحرب  
بالذات وإلا متنا من الجوع.

وخبطت صدري براحتي:

— أنا لها، حبيب الله الذكر.

\*\*\*

ظل أبي قلقا ليلة بعد ليلة:

— عندما تكون الفلوس سهلة إلي هذا الحد فلا بد أن أحدا يرتب  
ذلك لأمر يخصه.

— لا أحد يرتب أي شيء، ولا أحد يجبرك علي أن تأخذ أو لا  
تأخذ، الأمور أسهل مما تظن.

— وما أدراك!؟

— لا أري أحدا يرتب أي شيء.

— وهل يري الإنسان الشيطان؟

— أي شيطان يا عم بابا؟

— الشيطان، الذي حدثنا عنه ربنا. ربما يسهلها لأمر يدبره،  
وقد يكون الثمن فادحا.

— يا عم بابا؛ البلد كلها تمد يدها وتأخذ، وأنت تحدثني عن  
الشيطان!

— البلد كلها، كلها؟!.. أخشي أن يكون الثمن فادحا.

\*\*\*

ليلة بعد ليلة نأكل ونشرب ونتكلم. شرحت له موضوع  
الدولارات لكنه لم يكف عن قلقه. أنا حصرت الأمر في إطار  
الدعابة، كنت أقول له:

— أنكل شيطان يبلغك تحياته، اشرب وكل يا عم بابا.

وأناوله مصروفه:

— هذا من عمنا الشيطان.

أغلق أبي صالون الحلاقة وقعد في البيت. أكل وشرب  
وارتاح، لكن في النهاية وقفت اللقمة السهلة في زوره؛ مات.  
وجدته ذات ليل ميتا وهو جالس على الأريكة، وقد طأطأ رأسه  
لِلرَاديو، وصوت عدوية يتقاذز من بين أصوات المحطات البعيدة  
المتشابكة، ويدق علي دماغه:

— "السَّحَّ الدَّحَّ امبو".



لجأت إلي الحاج حسين جوهر لترتيب إجراءات الدفن. كنت مرتبكا جدا ولا علم لي بأي شيء، وهو ينهض لمثل هذه المهام بحماس، ويفخر دائما بأنه يعرف موظفين في كل الهيئات والمصالح الحكومية:

— الصغير قبل الكبير. أحيانا يكون الصغير أهم، معه الختم مثلا، يستطيع أن يعقد الأمور.  
قال وهو يحلق صاعدا سلم مكتب الصحة كأنه يصعد إلي السماء:

— تري هؤلاء الموظفين في الحياة فلا تهتم بهم؛ بزاتهم كالحية، وجيوبهم فارغة، وضحكتهم صعبة وبعيدة. ينامون الليل بطوله وينهضون مع طلوع الشمس لتصريف الأعمال الموكلين بها، والرجل الذي لا يعرف السهر هو دائما قليل المزاج.  
حين نزورهم في مكاتبهم نكتشف أسرارهم. لهم أسرار خفية مثل الملائكة؛ كلمتهم نافذة ومعهم الأختام والأقلام وبيدهم المفاتيح.  
من يحظي برضاهم يكسب، وبدون مساعدتهم لا تستطيع حتي أن



تثبت إن كنت حيا أم ميتا.

أنا أعرف قيمتهم الحقيقية، أستقبلهم بترحاب دائما: "يا بيه ويا باشا". أجاملهم وأبيع لهم بأقل الأسعار، وأحيانا بأرخص من سعر البضاعة، أخسر فلوسي لكنني أكسب ودهم، وعندما أفصدهم يسهلون كل أمر عسير.

\*\*\*

دفنا أبي في مدفن العائلة. كانت أول مرة أراه؛ علي واجهته قطعة من رخام أبيض مكتوب عليها بخط النسخ: "مدفن آل الذكر.. بناه ودُفن فيه زغلول الذكر"، وعلي نفس الرخام أسماء ستة من سلالة "الذكر" رقدوا في المدفن، وليس من بينهم حمروش.

كان الحاج حسين متأثرا بموت أبي، تمهل بعد الدفن رغم زعابيب أمشير ليعدد مناقبه للناس. قال لهم إنه كان طيب القلب لم يؤذ أحدا، وعاش ومات وربى ولده بعرق جبينه، وكانت اللقمة الحرام تقف في حلقه.

وأضاف:

— أما كلامه فلم يكن يصدر عن قلة فهم، وإنما عن مودة وحب للناس، وأحيانا تصادف في أقواله دررا لامعة، إشارات وخطف كلام مثل الأولياء. الحقيقة أنه لم يكن "سي كلام" وإنما "سيدي كلام".

بعد أسبوع أضاف الحاج حسين لواجهة المدفن رخامة سوداء  
جهزها علي نفقته الخاصة، ومكتوب عليها: "رقد في هذا المدفن  
يوم الجمعة الثاني من صفر سنة ١٣٩٥ هجرية المعلم حسن شحاتة  
الذكر المشهور بلقب "سيدي كلام".

\*\*\*

كان الحاج حسين جوهر رجلا ودودا مجاملا. في تقاسيم  
وجهه الأبيض المستدير أقواس رشيقة تحتضن ملامحه، وتحتضن  
أيضا وجهه محدثه بلطف، وتجعله يبدو مبتسما حتي في حالات  
الحزن.

احتضنتي أقواس وجهه بعد خروجنا من المقابر، وأصر علي  
أن أصحبه إلي بيته:

— تغسل وجهك من تعب النهار، وتأكل لقمة سويا.

ركبت السيارة جنبه وهو ساق علي مهل، وظل مشغولا بي  
طول الطريق. سألني عن ظروفه فأخبرته أنني مازلت طالبا أدرس  
الفيزياء والفلك في كلية العلوم.

— لكنك تبدو أكبر سنا.

— رسبت أكثر من مرة؛ الدراسة صعبة وظروفي أصعب.

— وما فائدة هذه الدراسة، ولأي عمل تؤهلك؟

— التدريس، ولو توفرت لي واسطة أعمل في شركة.

خاب أمله:

— ولماذا لم تدخل أي كلية أخرى يمكن أن تجعل منك مديرا  
مهما في الحكومة.

— أظن أن عصر الموظفين انتهى.

— أبدأ، لن ينتهوا أبدا، سنجدهم دائما في كل مكان وأوان  
جالسين علي مكاتبهم وأمامهم الأختام والأقلام، حتي السماء لا  
تستغني عن الملائكة يا حبيب أفندي .

بعَدَ الحاج حسين بالكلام حتي شارف تخوم السياسة، ثم رجع  
إلي الموضوع وسألني:

— والآن، كيف ستصرف أمورك بعد موت أبيك؟

— أبي توقف عن العمل قبل موته بفترة.

— وطبعا نفذت مدخراته.

— لم تكن لديه مدخرات ننفقها، أنا كنت أتولي تدبير  
المصروفات.

حدثته عن اشتغالي بالدولارات، وقلت إنني سأستمر في ذلك  
حتي تخرجي.

كان يعرف كل تجار العملة الذين أتعامل معهم، أنا ذكرتهم له  
اسما اسما، وهو نبهني:

— اللصوص؛ يعطونك نصف قرش فقط، العمولة الآن لا تقل

عن قرش .

وحذرنى :

— الدولار لعبة خطيرة، قد تنتهي بالسجن، ثم إياك  
والمخدرات يا حبيب أفندي .

ضيق الحبل ، لكنه وعدني خيرا :

— عموما لا تقلق، الحل عندي، نأكل ونتكلم .

\*\*\*

يسكن الحاج حسين في باب الخلق. ورث البيت عن أبيه،  
وأصلح مظهره بواجهة من الرخام يعلوها طلاء حديث. يكاد البيت  
يبدو عصريا، لكن زخارفه العتيقة ظلت تنشي بقدمه.

أمام البيت سبيل ماء مثلج، وفي الداخل ثلاثة أدوار مفتوحة  
علي بعضها بسلاالم داخلية. تقيم في الطابق الأول أرملة أبيه  
اليونانية، عرفها بي، وذكرها بيوم طهوره:

— هذا حبيب أفندي ابن المرحوم "سيدي كلام". كان يوم  
طهوري طفلا لكنه تصرف كرجل؛ تقدّم الزفة جنب أبيه، ودخل  
معه الغرفة. كان يناوله القطن والأمواس بثبات، لم يرتعش له جفن  
لمرأي الدم رغم صغر سنه.

تقيم زوجته في الطابقين الثاني والثالث؛ الجديدة في الثاني  
والقديمة فوقها:

— هي الأساس، ولا بد أن تكون فوق الكل.  
أخبرني بذلك دون أن نصعد، وقال لي أن الأكل سيكون في  
الطابق الأول مع ماريّا:

— الرائحة الزكية الباقية من ذكري المرحوم أبي.  
ثم بسط يديه:

— الفاتحة لأبي جوهر ولسيدي كلام، ولكل أموات المسلمين.  
أمين.

قرأت ماريّا الفاتحة معنا، ثم رسمت علامة الصليب حول  
وجهها وقالت:

— ولكل الأموات الطيبين، مسلمين وغير مسلمين، وبابا فيليب  
وماما إيرين.

— أمين

\*\*\*

أكلنا وتكلمنا، وطرح الحاج حسين الحل:

— تشتغل معنا في الخان، مع السياح يا حبيب أفندي

— لكنني لا أعرف شيئاً عن الآثار؟

— السياحة الآن ليست سياحة آثار، والسائح لا يهتم التاريخ

ولا من صنعه. السياحة أسواق؛ بيع وشراء، وشقق مفروشة،

وتأجير سيارات، وأماكن للسهر. أغلب السياح الآن عرب يبحثون

عن ساعة حظ. حتي الأجنب الذين نراهم في الخان جاءوا  
ليتقروا علينا، علي الناس وليس علي البلد، أو ليبحثوا عن متع  
سهلة ورخيصة.

ونصحي:

— انس سائح زمان؛ لا البلد هي البلد، ولا السائح هو السائح.  
وشرح فكرة الشغل بدقة أكبر:

— السائح الآن يحتاج خدمات، وأنت ستكون دليله، سيارة،  
شقة، شراء أنتيكات. تأخذ عمولتك من السائح ومن المصري. هذا  
الشغل أبوابه كثيرة ورزقه واسع، وهو أقرب للدولارات أيضا،  
وأكثر أمانا.

حسم الموضوع، وحدد الزمان والمكان:

— نبدأ بعد الامتحانات؛ تأتي إلي دكاني، نشرب الشاي معا،  
وتصطاد زبونك. إجازة الصيف الدراسية هي أيضا موسم السياحة.

\*\*\*

لم أنتظر إجازة الصيف، بدأت بعد أيام.



كانت نازك تراقب تحركاتي في الخان بريية، فهمت ذلك من تلميحاتها المتكررة:

\* ما الحكاية؛ كل الناس في الخان أصبحوا يعرفون "سي الأفتدي".

\* فلوسك كثرت؛ لبست سلسلة ذهبية وقميص حسين فهمي وعلت روميو.

\* أمي قالت لي: "لو مددت يدك للجوعان بعضها"، وأنا لم أسمع نصيحتها.

\* فزورة تحيرني: واحد أعطيته رغيفي يقسمه بيننا نصفين، أخذه وهرب؛ ماذا يستحق مني؟

في النهاية واجهتني.

أنكرتُ، لكنها أكدت لي أن التجار أخبروها بأشياء كثيرة:

— أشياء لا معني لها إلا أنك تشتغل وحدك، ومن خلف ظهري.

لم يكن يهمني أمرها، فهي بالنسبة لي ليست أكثر من رغبة لم



تتحقق، لكنها ليست رغبة ملحة. نهرتها لتكف عن صياحها، وقلت لها إن مظهرها يخجلني وطريقتها في الكلام تخجلني، وإني لم أعد أطيق أن أري وجهها، وإنما يجب أن تدرك من الآن من أنا ومن هي.

سألتها بازدياء:

— أنت؛ من أنت؟!

— قد لا تعرف من أنا، لكنني أعرف من أنت.

وشتمتني:

— أنت "الواطي" مثله.

وتوعدتني:

— سأفعل بك ما فعلت "ستنا" بذلك "الكافر".

تلاعبت بالفلوس في جيبني لأغيطها، فأخرجت هي خمسة

جنيهات من جيبها وأحرقتها أمام طرف أنفي حتى صارت رمادا:

— ملعون أبو الفلوس.

وتحدثتني:

— تحارقني؟

أحرقت خمسة أخري، وطيرت الرماد بأنفاسها علي وجهي،

وواصلت التحدي:

— لو أنت رجل؛ احرق جنيها.

لا أعرف شيئاً عن "الواطي" ولا "الكافر" ولا "ستنا"، ولا عن كل تخاريف أمها. هربت بفلوسي وكنت مصمماً علي ألا أراها مرة أخرى.

تكرر خصامنا ورجوعنا، هي التي كانت ترجع إلي دائماً، أجدّها تنتظرني علي مخارج الخان أو تحت بوابة الفتوح، تمشي في ظلي وهي تتوسل لي لأصالحها:  
— يا وعدي.. يا وعدي..

انتهزت الفرصة وضغطت عليها حتي أجرّها لما أريد، وأحقق رغبتني المؤجلة.

\*\*\*

حصل

\*\*\*

تم أول لقاء بيننا تحت سرير حديدي تتقلب عليه أم لسان. كانت العجوز لاهية عن الدنيا بمحارتها وتخاريفها، لم تنتبه لحركاتنا ولا لأصواتنا في القاع. لم تنتبه لوجودنا أصلاً، ربما كانت تظن أن ما تسمعه هو وشيش المحارة. كانت تقلبها علي أذنيها وتجاوبها:

— احرقيه بنارك.

وتردح:

— "الواطي"، من لا اسم له؛ قطفت له "ستنا" الورد، وهو  
وجعها بشوكه.

\*\*\*

كانت المرة الأولى سريعة وبدون تركيز، بسبب هلوسات "أم  
لسان"، وتخبطنا المتكرر في سقف السرير وأرجله الحديدية. بعد  
هذه المرة كنت أصر علي أن نلتقي في بيتي.

\*\*\*

لا أعتبر وصولي لنازك إنجازا.  
أعرف أنه كان أمرا سهلا لغيري؛ تحت أي سلالم، أو تحت  
سرير "أم لسان"، أو في أي مكان. لا أعرف لماذا خصتني بتلك  
المراوغة الطويلة.

واجهتها بوقائع محددة لاحظتها بنفسي في الخان؛ كلمتان، ثم  
يسحبها أحدهم خلفه. لم تجادلني، وقالت:

— أحيانا تأتي المسألة فجأة ولا أكون منتبهة، يدخل الواحد  
منهم علي قلبي بحضن كلام، فأنسي نفسي، ولا أدري ما يجري  
لي.

اندهشت؛ لم تكن خجلي مما تقول. تعاملت مع الأمر ببساطة:

— ما أحلاك وأنت غيران.

وحاولت أن تطيب خاطري:

— أنت شيء آخر .

المجنونة؛ ماذا تقصد؟..هل تظن أنني يمكن أن أحبها؟  
سألتها عن ذلك ساخرا من أفكارها، فارتعش جلد الأفعى في  
بياض عينيها، وتاهت نظراتها في الأحمر الذي تتوهمه في خضرة  
عيني، وتتهددت:

— ياخراي؛ أنت لو عشقت تقوم القيامة.

\*\*\*

لا أشغل نفسي بنازك، هي مجرد رغبة متقطعة تراودني، وأنا  
عادة أبخل بنفسي علي النساء، لا أريد أن أبدد بهجتي، أحتاج كل  
قطرة لنفسى. الضرورة فقط.

قال لي أبي مرة:

— نار النسوان تحرقها، أما نار الرجال فتتور بصائرها.  
التقطت بيضة الديك النادرة من وسط كلامه الكثير.

\*\*\*

أحتاج نازك أحيانا لتؤدي بعض الخدمات الصغيرة لزبائني؛  
قراءة كف أو تغيير عملات، لكن حتي تلك الخدمات يمكن  
الاستغناء عنها تماما. نازك ليست أكثر من نقطة صغيرة يمكن أن  
تتلاشي في محيط حياتي التي أصبحت أكثر اتساعا.  
حتي أجواء الجامعة اتسعت أمامي مع التحسن المستمر في

مظهري ومصروفي. لبستُ الجينز، واشتريت القمصان المستوردة من شارع الشواربي". توسعت في العلاقات، وتجنببت كلام السياسة. ماذا يمكن أن أجنبي من المظاهرات والمناقشات حول اتفاقيات السلام إلا المشاكل، وماذا يمكنني أن أفعل أكثر من أن أحمي نفسي.؟

ركزت اهتمامي علي أمرين؛ الأول أن أتم دراستي الجامعية، وأنجزت ذلك بعد تعثر. والثاني أن أستكمل مهارات عملي. كان قراري جاهزاً؛ سأواصل عملي في الخان، أبواب الرزق مفتوحة علي مصراعها، وعليّ أن أنتهز الفرصة.

لكي تتقن مهنة ما عليك أن تتعلم الكثير، وكل معلومة إضافية تقودك للإتقان.

بالنسبة لمهنتي كان علي أن أعرف أسعار كل شيء؛ الذهب والفضة والأحجار والعطارة. وأن أعرف أيضا عناوين الفنادق الرخيصة والشقق المفروشة والمطاعم وأماكن السهر. وأن أوسع دائرة علاقاتي مع سماسرة وسائقين وتجار وعرافين وسحرة، وأن أحدد أهمية علاقاتي حسب نسبة العمولة.

طبيعي أن أعرف المعلومات الضرورية عن آثار المدينة، لكنني لا أشغل نفسي بها كثيرا. أعرف أيضا أساسيات الجغرافيا والتاريخ والسياسة، ولكن في حدود المعلومات العامة التي لا تثير نقاشا، ولا تورطني في خلاف مع أحد.

أهتم كثيرا باللغات وعلوم النفس والفلك والطبيعة. ربما جاء اهتمامي بالفلك بحكم دراستي أساسا، لكنني اكتشفت أن تلك الموضوعات الكونية تثير الناس من كل الأجناس، وتفتح بينهم مساحات آمنة للكلام والتأمل. كنت أستخدم معلوماتي العلمية في

تفسير بعض الظواهر الطبيعية والنفسية الخارقة؛ أبدو عند ذلك  
مبهرًا.

الحاج حسين جوهر قاذني إلي اهتمام غريب ومهم؛ الأحجار  
الكريمة.

كان يحب مهنته الموروثة ويعتبرها مستودعا للأسرار الكونية.  
يحدثني عن ذلك حين أزوره في متجره:

— لكل حجر فائدة لا يعرفها إلا أهل الأسرار، الزمرد يبطل  
عمل السموم ويفقأ عين الأفاعي ببريقه، والياقوت يجلب الهيبة،  
والفيروز يدفع نظرة الحاسد. الراسخون في العلم يعرفون ما لا  
نعرف، وتركوا لنا علامات نهدي بها. خاتم النبي سليمان كان من  
العقيق السلیماني، وخاتم الإمام عليّ من الحجر الصيني، وعصا  
موسي من الكوك.

ويشرح لي:

— الكوك خشب وليس صخرا ولا معدنا، أصله من شجر  
يزرعونه في بلاد بعيدة، وفيه من الأسرار ما لا يحيط به إنسان،  
يكفي أنه شقّ البحر وأبطل شر سحرة فرعون.

أرتاحٌ للحديث مع الحاج حسين، لكنني لا أطيق الكلام أبدا مع  
نازك، لا أصبر عليها. كلامها أخلاط من تعبيرات غامضة  
وتشبيهات غريبة متشابكة، تجعلك تتوه بين المعاني وتستغرق وقتا

أطول في الفهم. أتعامل معها أغلب الأحيان كصوت، مجرد صوت.  
أحس حالاتها من نبراتها، فأتعامل معها حسب ما أفهم وأختصر  
الكلام.

تضجر نازك من سكوتي خاصة في لقاءاتنا المنفردة، فنقرص  
شفتي وتعاتبني:

— بخيل حتي بالكلام يا وعدي. أسمعني صوتك؛ كلمني.  
قلت لها مرارا إنني أفضل الكلام مع نفسي، وهي كانت ترد:  
— الكلام يكون بين اثنين؛ لسان يقول وأذن تسمع، أما كلام  
الواحد مع نفسه فهو خيال كلام.

كلامها مفهوم حتي الآن، أما بعد ذلك فتوهان:  
— "الواطي" كان مثلك، لا يسمع غيره، ولا يكلم إلا نفسه، لكن  
الملائكة سمعوا كلامه لنفسه، وفضحوه أمام ربه.  
ماذا يمكن أن أفهم من هذا الكلام؟.. هل كانت تشتمني؟  
عموما هي سافلة ولا أستبعد ذلك، جاهلة وسافلة.

\*\*\*

ماتت "أم لسان" فبكت نازك علي كتفي، ونعتها بطريقتها  
الغريبة:

— ذهبت إلي "ستنا".

وأخبرتني أنها دفنت معها محاربتها:



— هي محارة السماء، لم تكن تملك غيرها.  
لم أهتم بتخاريفها، بل ولم أهتم حتي بتعزيتها.  
سألتها بعد أيام عما إذا كانت المرحومة علي علم بمغامراتها  
تحت السرير فأدهشتني؛ تقبلت السؤال ببساطة، وجاوبتني:  
— كانت عارفة، أو قلبها حاسس.

وفاجأتني:

— أمي لم تمنعني عن الرجال، لكنها كانت تحذرنني من  
العشق.

\*\*\*

أحيانا كنت أحاول تعذيبها بفكرة الحلال والحرام، يروق لي أن  
أفعل ذلك وهي في حضني. لا أكون جادا، وإنما مجرد ملاحظة.  
تتلوي وتنكمش في سريري مثل الافي، وتقول لي:  
— كيف أعصي الله، وأنا صنعة يده، كما ركبني أتصرف.

\*\*\*

هل بعد هذا كلام!؟

ألوم نفسي أحيانا علي أنني سمحت لنازك بالاقتراب مني.  
تهاونت كثيرا، وتركتها تقترب إلي درجة أصبحت تخجلني، وهي  
سخرتني في مؤامرات صغيرة تخصها دون أن أدري.

كانت تتصرف معي بانبهار يرضيني، وربما كان ذلك سبب  
تهاوني معها. وكانت تفيدني أيضا في أعمالي، تنقل لي أخبار  
الخان، وتحدثني عن نشاط غيري من المرشدين السياحيين الذين  
يتزايد انتشارهم يوما بعد يوم، وسهلت لي أحيانا الاقتراب من سياح  
عرب تقرأ طوالهم، ومن مصريين أيضا.

لم يكن اقترابها مني مستمرا؛ تقترب فترة وتبتعد أخرى. لم  
أشغل نفسي بفهم أحوالها الغامضة، وإن كنت أؤمن ببسر طبيعة  
انشغالاتها. أحيانا يكون لديها ما تحاول أن تخفيه.

تغيب وترجع بسيناريو تمثيلي:

\* سافرت لاسكندرية. صيف، والرزق واسع علي مقاهيها،  
وبحرها جميل.

\* جارتنا دخلت المستشفى، رقدت جنبها.

\* الانفلونزا كادت تقتلني، وأنت لم تسأل عني.  
أحيانا تتورط في روايات متناقضة، وتتشغل أياما طويلة بحل  
التناقضات بين السيناريوهات المتشابهة:

— لم أمكث في الأسكندرية أكثر من يومين، ولذلك لا تجد لون  
لفحة الشمس في وجهي. يومان ومرضت، فرجعت، ورقدت علي  
السريـر.

دائما؛ في رأسي سيناريوهات مختلفة عما ترويـه، أضمنها لكنني  
لا أشغل نفسي بها. أحيانا؛ أنبـهـا إلي كذبة فاضحة في كلامها:  
— لم تكوني مريضة، بل كنت في الخان. رؤوف أخبرني أنك  
سهرت في اللوكاندة، ورأي عبده القهوجي ينتظرك آخر الليل علي  
الباب.

— صحيح؛ حدث ذلك ولكن ليلة الأربعاء، قبل مرضي بليلة.  
تغافلت عن مراوغتها في التواريخ، وضيقـت خناق الكلام:  
— وماذا كنت تفعلين مع عبده؟  
رنت ضحكتها:  
— بيزنس يا وعدي.  
— أي بيزنس؟  
— وهل أسألك عن أسرار شغلك؟  
— ليس لدي سر أخفيه.

— وماذا تظن بيني وبين القهوجي؛ إما فلوس أو قضاء  
مصالح.

وتحدّثني:

— لن أخبرك بشيء، يكفيك الدولار، قرش أو قرشان. الآن أنا  
أكسب ذهباً.

أفهم طريقتهما؛ تلاعبني بما يهمني، تشغلني بالحديث عن  
الفلوس لتشتت أفكارني بعيداً عن فضائحتها.

\*\*\*

رؤوف هذا يعمل مديراً إدارياً للوكائنة " الأنوار ". يسمح لنازك  
أحياناً بالتجول في صالة اللوكائنة لقراءة الكف والفنجان للزبائن،  
أغلبهم تجار من الأرياف، يمضون ليلة أو ليلتين لتدبير صفقاتهم  
في الخان، وبعضهم سياح فقراء لا يقدرّون علي أسعار الفنادق  
الراقية.

بين رؤوف ونازك تعاملات لا أعرف مداها، لكنه حين يتحدّث  
عنها معي يلمزها بالكلام. أفهم ما يرمي إليه لكنني لا أهتم. ليس  
فيما أفهمه مشكلة، مشكلتي الحقيقية بالتحديد هي في حرصها علي  
الالتصاق بي.

البعض يسألونني عنها وكأنها شيء يخصني، أخجل من ذلك،  
وأفكر في الهرب.

\*\*\*

أعتقد أن الفرصة الوحيدة للنجاة من النار هي أن تشمها قبل أن تراها، وكلما غفلت عن ذلك قلت فرصك في النجاة.

أشم في كلامها إشارات لا أرتاح إليها. تسألني:

— لماذا لا تصدق نفسك؟

— فيم أصدقها؟

— أنك وعدي.

— وهل أنا مجنون؟

— المجنون هو من لا يصدق نفسه.

وتتصحني:

— من يصدق جنونه يعقله، أسأل نفسك وصدقها.

\*\*\*

كأنني كنت أستمع إلي أرسطو أو أفلاطون؛ ها.

\*\*\*

لا أعرف الكثير عن أرسطو أو أفلاطون، لكنني أهتم كثيرا بقراءة الخواطر والتأملات الفلسفية، اكتشفت أنها تشكل مع معارفي العلمية خلطة سحرية تلفت انتباه أي شخص.

أحتاج إلي خبرات كثيرة لاقتناص فرص الشغل مع التزايد المستمر للسياح. كان العرب بالذات يزحمون شوارع الخان رغم

المقاطعة السياسية، بجلابيهم البيضاء المميزة ونسائهم المنقبات.  
يتجول بعضهم فرادي بملابس عصرية، رجالاً أو نساء. عندئذ  
يبدون أكثر تحرراً، يتصرفون بلا تحفظ، ويميلون في كلامهم إلى  
التفلسف واستعراض المعلومات.  
كسبت كثيراً في تلك الفترة من عمولات اللوكاندا والشقق  
المفروشة، ومن تغيير العملات. كسبت وصاحبت، بعضهم كان  
يحرص علي لقائي في زيارته التالية.



كانت موزة أول زبونة أشتغلها، نعم "أشتغلها".  
التعبير غريب لكنني لا أجد تعبيراً آخر يفوق دقته. أن تشتغل  
مادة طبيعية مثل الحجر يعني أن تحولها لموضوع شغل، تعيد  
تشكيلها لتتنفع بها، تشتغلها لتستغلها بالشكل الذي تريده أنت.  
هو نفس المعنى بالنسبة لإنسان، رجلاً كان أم امرأة، لكن يزيد  
عليه أن تلعب ببرنامج دماغه، تعيد ترتيب رغباته وأولوياته  
وارتباطاته، أن تدفعه نحو ما تريد.

كانت موزة شاعرة، تصرف بسخاء، وتحمل معها دائماً  
ديوانها الوحيد "أمطار القبلات". قالت لي إنها من أسرة كبيرة جداً،  
أهلها أصحاب نفوذ، ولديهم أتباع وخدم، لكنها تضيق بحياتها في  
بلدها وتعشق الحرية. تريد أن تزور كل الأماكن، وتعيش بين  
الناس، كل الناس.

فهمت من كلامها أنها هاربة من مشكلة عاطفية. لم تحدثني  
عن ذلك بصراحة إلا بعد وقت طويل من تعارفنا.  
اشتغلها علي مهل بتسخين عاطفي رقيق، ليس من ذلك النوع



الذي يؤدي إلي الفرائش باستمرار، وإنما إلي الارتباط، الاعتماد،  
التعود.

\* كيف حالك يا موزة، وجدت لك شقة علي النيل، لقطه  
شاعرية تناسب مزاجك.

\* صباح الفل يا موزة، أقرأ ديوانك علي مهل، وسأحتاجك  
لفهم بعض الأفكار التي تستعصي علي.

\* مساء الخير يا موزة، أتابع نقش صورتك علي طبق الفضة،  
وطلبت من النقاش أن يحفر علي حافة الطبق زخارف من الورد.

\* رَبَّتْ لك اليوم رحلة إلي الريف، مارأيك؟

\*\*\*

اشتغلته علي مهل، وهي انشكبت وانشغلت. تحدثني بلهفة:

— اشتريت.. رأيت.. أريد.. تعال.. انتظرنني.. مشتاقة..

حولها أصوات. أفهم الجو؛ رجل، مكان للشرب، خلوة. لا

يهمني ذلك كثيرا، الأهم نتيجة الشغل.

كثرت طلباتها:

— كيفك يا نور عيني، الشقة ممتازة لكن البواب كلب. هناك

أعمال لا يمكن أن أنجزها إلا في بيتي، وهو يضايق ضيوفه كأنه

زوج أمي؛ يسأل ويفحص ويصحبهم حتي باب الشقة، كأنه يتجسس

علي، يحرجنني ويحرجهم.

صحيح هو لا يفتح فمه بكلمة لكن نظراته غير مريحة، رغم  
أنني أعطيه بسخاء. تصور في كل طلعة مع ضيف يتلكأ طويلاً  
حتى أعطيه، ويفحص العملات ببرود قبل أن يضعها في جيبه، لا  
أرتاح لذلك.

حبيب قلبي، دبر لي شقة أخرى لا أتعرض فيها لمضايقات من  
هذا النوع.

\*\*\*

فهمت قصدها. قيل أن تمضي ساعة كنت قد دبرت لها مكاناً  
جديداً، شقة فخمة في وسط البلد في عمارة أغاب شققها عيادات  
ومكاتب لا ينقطع زوارها.

كسبت خمسين جنيهاً من سمسة الشقة الجديدة، وحصلت علي  
حق الانتفاع بثلاث ليالٍ في الشقة المطلة علي النيل.

\*\*\*

دعوت نازك لشقة النيل.

كان البواب لطيفاً معي عكس ما توقعت، أخبرته أن موزة  
رحلت وأنتي سأستكمل مدة الإيجار المدفوع. حياتي علي ما فعلت:  
— جدع.

ولمز موزة:

— فتحت الشقة علي البحري، كأن الرجال ستنتهي من الدنيا.

ساعد علي المودة معرفة سابقة بيننا، ورائحة مشروب يفوح من فمه. عموما كان لطيفا، قنع بسيجارة من نازك وداعبها:  
— تنفعي في الأبهة.

تحيرني نازك، لا تقرح بأشياء كثيرة تبهج غيرها.  
أخبرتها أنه كانت تقيم هنا امرأة مختلفة؛ شبه أميرة. حاولت ان أدهشها بالوضع وبالشفقة، لكنها ألقت جسمها علي الكرسي الهزاز، وأشعلت سيجارة، واستغربت كلامي:

— فرحان كأنها شقتك أو شقتي، مجرد ليلة وتقوت، وكل واحد يرجع لمكانه. أين الحمام؟  
دائما تتصرف علي هذا النحو.

استحمت، غسلت كل ملابسها ونشرتها، وعقدت ملاءه سرير حول عنقها وتحركت بحرية.

— ماذا سنأكل الآن؟

كانت موزة قد أخبرتني أنها تركت في الشقة طعاما وبقايا زجاجة ويسكي، لكنني لم أجد شيئا. واضح أن البواب سبقني، ربما أخبرته موزة بالأمر قبل رحيلها فسبقني.

طلبت من البواب أن يشتري دجاجة مشوية وسجائر، أحضر الدجاجة ومعها بقية زجاجة الويسكي التي سطا عليها، وقال إن موزة أعطتها له قبل رحيلها لكنه لم يحب طعامها، جرّب لكن الطعم

اللاذع جرح زوره.

احتفظ لنفسه ببقية العشرين جنبها مقابل الزجاجه، لم يترك لي  
فرصة المبادرة بالعطاء.

— ليلتك سعيدة.

\*\*\*

تحصنت نازك بالملاءة. كانت بعض تفاصيلها تتكشف في  
انفراجات الأطراف، وهي تمشط شعرها المبلول علي السجادة  
الخضراء بين صور أمراء الصيد والغزلان النافرة.  
أرشف كأسي علي مهل فوق الكرسي الهزاز، وأترقب  
انكشافاتها من فرجات الملاءة؛ سمرتها النحاسية، ولحمها البض  
المختمر.

حين أتأملها هادئة تحت أقدامي؛ أراها مختلفة عن نازك التي  
أعرفها في الخان. ثمة شيء يتحرك داخلي، ويعيد تكوينها بأشكال  
مختلفة.

لا أستطيع أن أقول إن أيا من ملامحها يتميز بجمال خاص،  
لكنها كانت تكوينا فائتا. أتعجب كيف يمكن أن يخرج هذا التكوين  
الخاص البديع من ملامح غير مميزة. قصاقيص عادية تم تركيبها  
بشكل يجعلها في النهاية تفوق أي جمال أتخيله. هكذا تبدو لي في  
تلك الأوقات الحميمة.

كانت مفتونة بنظراتي، لكنها بدت حزينة ونادمة علي

صحتي:

— جددت المواجه يا قلبي.

مواجهها دائما مني. عاتبتي علي أي بعيد عنها دائما:

— دائما قريب وبعيد؛ جواك أبعد من براك.

أخبرتها أي مشغول بمستقبلي:

— تركت العمل المضمون في الشركات، وأغامر بمستقبلي

في الخان، ولا بد أن أفعل ذلك بإتقان وبعيدا عن الشبهات.

فهمت قصدي؛ فأشارت إلي نفسها، وسألتي:

— أي شبهات؟

— أسألي الناس.

— ولماذا تسمع كلامهم؟

— لا أستطيع أن أسد أذني.

— طبعاً، لا نستطيع أن نسد آذاننا، لكننا نستطيع أن نغلق

عيوننا أو نفتحها لنري ما نريد. الإذاعة تحدثنا ليل نهار عن

الرفاهية، بينما نحن نهلك في طوابير الانتظار الطويلة من أجل

دجاجة أو صابونة؛ هل نصدق أنفسنا، أم نصدق كلام الحكومة؟. إذا

كان السماع بالعافية فالرؤية بمزاجنا. اسمع، لكن افتح عينيك.

السماع وحده من طباع الخدم، ألا يقول الخادم لسيدة في التمثيليات:

"لك السمع والطاعة".

سألته بطريقة مباشرة عن حكاية عبده القهوجي فقالت:

— ليست كما تظن يا وعدي، الحكاية كلها أوقية حشيش،

اشتريتها له من تاجر في اللوكاندة، "سبوبة" صغيرة.

وأوضحت لي:

— لا أعمل بهذا الصنف، هي مرة وراحت، توبة

وصارحتني:

— لكنني أدخنه من حين لآخر، أعدل مزاجي بسيجارة كلما

زادت الهموم.

لقت سيجارة وطلبت مني ألا أمنعها:

— دعني أدخنها، ربما تنسيني قسوتك.

عدت بها للموضوع، وحدثتها بما سمعته من آخرين عن

أفعالهم معها زمان، تحت سرير أم لسان. قالت:

— حلاوتك في الغيرة يا وعدي. تلك كانت شقاوة صغار،

قبلات وأحضان فقط. ماذا في ذلك؟.. هو شيء جوانا، لا نخترعه،

ولا نشتره من دكان؛ خلقة ربنا، وكنا صغارا.

دخنت سيجارتها، ثم ألقت نفسها في حضني، وأقسمت:

— أحلف لك بغلاوة "ستنا"؛ لا يوجد غيرك يا وعدي، أنت

الوحيد الذي أعطيه، أعطيك نفسي.

\*\*\*

عزيمه حيه، تنكمش وتنممد في أحضاني، مثل عجينة بكر  
لامرأة لم تتشكل بعد، وصوتها يأتيني من عمق جسدها:  
— يا وعدي.. يا وعدي..

\*\*\*

كيف أصف صوتها؟

لو سلّمتُ بما درسته في الجامعة عن الانفجار الكبير، وأن  
الكون بكل تفاصيله ونحن منها مجرد أصداء لهذا الفعل الأول، فإن  
أصواتنا هي أيضا أصداء متوالية للصوت الأول الذي صاحب تلك  
الضربة الكبرى.

أظن أن لكل صوت بصمة خاصة، مثل بصمة الإصبع التي لا  
تتكرر. يختلف حسب قربه أو بعده عن المصدر الأول، الصوت  
الأول. هناك صوت يأتي من القشرة الخارجية؛ السطح، وهناك  
صوت يأتي من عمق أبعد، وصوت يأتي من عمق الأعماق؛  
الرجفة الأولى.

هذا صوتها؛ يأتيك من عمق مجهول، فتقف على الحافة  
المخيفة، وتعيش الرجفة الأولى؛ النغم الأول.

أظن أيضا أن لدي ملكة خاصة تؤهني لاستقبال تلك الذبذبة  
المميزة في صوتها، لابد أن تكون بيننا توافقات تؤهني لذلك.

يخيفني الأمر.

أتذكر أنني حاولت أن أبسط لها تلك الأفكار في لحظة نزق،

وقلت:

— هكذا خلقنا؛ ضربة، وبوم.. بوم.

سمعتَ كلامي عن "الضربة الأولى"، ومصمتت شفثيها

باستغراب:

— ضربة في قلبك. هل كان غضباناً فيضربنا بالعصا أو

يرمينا بالقنابل؟!.. بالعكس؛ كان فرحانا ويضحك؛ سبحانه. سمَّها

"الضحكة الأولى"، صوتها مازال يرن في أذني.

أتعجب؛ هل فهمت كلامي الصعب!؟





غابت نازك عني وعن الخان طويلا. اختفت سنة، ربما أكثر  
من سنة، بالتأكيد أكثر. لا أخفي أنني قلقت أحيانا، ربما بحكم  
العادة.

قلقت؛ كنت أبحث بأذني عن بصمة صوتها في شوارع الخان  
كما تبحث الكلاب البوليسية عن بصمة الرائحة. قلقت ونسيت، ثم  
عدت للقلق. ذهبت إلي بيتها أسأل عنها فقال الجيران إنها رحلت؛  
تركت البيت وانتقلت إلي مسكن جديد:

— لا نعرف أين، وهي لم تخبر أحدا بعنوانها. نقلت متاعها  
بعربة نصف نقل لا نعرف صاحبها ولا سائقها، فعلت ذلك ذات  
ليل، ورحلت.

في النهاية نسيت السؤال، ربما تعودت علي غيابها كما تعودت  
علي حضورها.

\*\*\*

غابت ورجعت بعد أكثر من سنة. سمعت صوتها ذات ليل  
يُدوي في حارات الخان بلهفة:

- يا وعدي..

لسعني نداؤها كنيزك حارق.

\*\*\*

دعوني أستدير بوجهي وأحاول أن أتذكر تفاصيل ذلك الليل

المخيف.

\*\*\*

كنت في ذلك الوقت أنتظر عشائي عند عثمان الكبابجي. لفتت

رغيفي بسرعة، وتتبع صوتها في الخان تحت رذاذ مطر خفيف،

حتى صادفتها علي أحد المقاهي.

تركت زبائنها، وألقت رأسها في حضني أمام الناس:

- آه يا وعدي.

- أين كنت؟

- مرت بي أحوال تنهد لها الجبال، وأنت لم تسأل عني.

- سألت جيرانك، ولم أعرف عنوانك الجديد.

- لو اهتمت لعرفت.

وعاتبني:

- أنت تائه مع "الأفندي". ارحم نفسك، وارحمي.

\*\*\*

أمضت أغلب الليل معي، في شقتي. أكلت رغيف اللحم علي

مهل، وهي اكتفت ببيضتين وقطعة جبن، ولفت أربع سجائر.  
انتظرت أن تحكي، لكنها تجاهلت الموضوع. كانت قلقة  
ومتردة، وحزينة أيضا. استقرت عن أحوال الخان، وحسنتي  
علي تجديبات الشقة:

— دهنتها بالزيت، وجددت الفرش. وصار عندك تليفون  
وتليفزيون وغسالة.

وسألتني وهي تتمدد جنبي وتشير للمكيف:

— بكم اشتريته؟

رفستها، وذكرتها بالسؤال الأهم:

— أين كنت؟

— وأين تظنني كنت؟! .. درت في بلاد الله أبحث عن رزقي.

— أي بلاد؟

— وماذا يهمني من الأسماء؟! بلاد؛ في كل بلد ناس وأشجار  
وطيور، وشمس وقمر، وأرزاق تنتظر أصحابها. بلاد تشبه  
بعضها، فلماذا أشغل نفسي بالأسماء؟

الماكرة، كنت متأكدا أنها تكذب، وأن وراءها سرا لا أستطيع  
أن أخمئه. فضلت أن أهملها قليلا، وأن أخفي اهتمامي بمعرفة  
أحوالها. تشاغلنا عنها بزجاجة بيرة، وإجراء مكالمات مع بعض  
الزبائن.

هي لفت مزيدا من السجائر. أطفأت النور، وجلست عارية  
علي السرير.

كان شباكي المترب المستدير يخفف عتمة الغرفة بومضات  
بروق وبصيص من ضوء مصباح الشارع، وكانت ظلال فراشات  
هائمة تسبح علي الجدران، ووجه نازك يتبدل بأكثر من حال في  
أخلاق النور والظلال.

تكوين وجهها الغريب يجعلني أراها بأشكال مختلفة. تنتظم  
قصاقيص ملامحها في وجوه تتبدل باستمرار، حسب حركة وجهها  
وزاوية رؤيتي. مع كل لفتة تتغير الرؤية.

أري وجهها من فوق بأجفانه العريضة المثقلة بالرموش وكأنها  
تهم بالغروب. وأراها من أسفل امرأة تهم بالشروق، تتفتح في عتمة  
الرجفة الأولى.

غربت عيناها طويلا وهي تدخن، ثم هزت رأسها، وعاتبتي:  
— لا تبدو مرتاحا لعودتي، وأظنك كنت سعيدا لغيابي. لم  
تشغل نفسك بي، ولم يهملك إن كنت مت، أو سجننت.

كنت ممددا علي ظهري بملابسي أنتظر الإجابة، وهي جالسة  
عارية أمامي تتحسس ثديها كأنه يؤلمها. تجاهلتها طويلا، وهي  
قرأت السؤال المعلق في عيني. حايلتني:

— هل تصدقني؟.. عموما؛ لا بد أن أخبرك. الحقيقة أن "ستنا"

نادتني؛ نسيت نفسي وتهت. درت في البلاد، أطرق الأبواب، وأنا  
علي الأعتاب، ولما تعبت رجعت.

— من "ستنا"؟

— ستنا.. ستنا.. ستنا..

\*\*\*

ترفُّ ظلال الفراشات حول وجهها، وهي تتحسس ثدييها  
وتحكي. كان صوتها يختلط بالرعود، يأتي من عمق الأصداء  
البعيدة؛ الأصداء الأولى:

— هي "ستنا" كلنا. كانت من أول الدنيا وسط الستات، هائمة ما  
بين الأرض والسماوات. كل واحدة علي حصانها، هو رجلها  
وفراش حنانها، وفوقهن الأغصان؛ بلح وتين ورمان، ومن كل  
فاكهة السماء ألوان.

تتبختر قوافل الستات، وأمامها العرافات يقرأن مسالك النجوم،  
وخلفها البنات بالدفوف والصاجات.

في يوم من الأيام؛ نام الملائكة من التعب والسهرة، وغفلوا عن  
أمر الأغصان، كأنهم نسوا وطال نسيانهم، وكله كان بالأمر. مع  
غروب الشمس جاءت "ستنا"، وجوعها كان شوقها، جاءت وطال  
جوعها.

ومر يوم بعد يوم، ومع شروق الشمس السادسة رأت في مرايا

الأرض بساتين السماء، نزلت بجوعها وشوقها، نزلت وتركت  
حصانها. وكان نزولها جنب باب الخلق، خارج الأسوار.

كان خارج الأسوار خليج وزرع، أكلت وشكرت، ولما شبعت  
ثقلت. حاولت تعود إلي فوق لكنها وقعت. وقعت ووقعت ووقعت،  
وحصانها ما بين السماء والأرض ينظرها، ويصهل بحزنه عليها.  
وطال زمانها علي الأرض.

تمشي وحولها ذكور الخلائق تسبح حسنها، من كل نوع فرد؛  
حيوان وطيور وشجر. و"ستنا" وسطهم طول وعرض، الجلد طيات  
ورد، ونظرة العين وعد، والفم إيريقي سعد. تقطف من وردها  
وتعطيهم، وتسقيهم.

وداخل الأسوار كان "الواطي"، لا عينه تري الجمال، ولا قلبه  
يعرف العشق. عجوز قبيح، بعين زجاج وقلب حجر ووجه صفيح،  
لكنه صاحب جيش وأمر. حوله حرس، وفي يده جرس، إذا  
صلصل يركع له البشر.

ذات يوم جاءه جاسوسه بالخبر، وأنذره بالخطر، دقت طبول  
الخوف في القصر. طلع لها بالشر، وحرمها من نفسها. آه يا  
"ستنا".

خرج لها من باب الفتوح ساعة مكر، صاهاها بشباك الغدر،  
ورجع بها من باب النصر. دار في المدينة بصيده، علي كل باب،

وعند بوابة الموت سلخها حية، وتلفع بجلدها. آه يا "ستنا".  
الشمس كانت ساعة غروب وهمّ، رسمت علي البوابة خيال  
قتيل ودم. آه يا "ستنا".

"الواطي" عاد للقصر، وهناك أمر، وكان الأمر؛ دقوا المسامير  
في جلدها المسلوخ، وكسوا به العرش. قعد علي الفرش، واستكبر.  
"الواطي".  
"ستنا" لم تسكت.

قامت له من موتها، دبّت حلاوة الروح في جلدها، التصقت في  
جسمه بنارها، وهو مربوط بكرسيه، لا قادر يردّها، ولا قادر يقوم  
لها. ياويله؛ "الواطي".

وبعد حين وحين؛ مر الملائكة وتحيروا في حاله. رفعوه  
بكرسيه إلي فوق، ووضعوه في المفترق ما بين جنته وناره،  
ودخلوا يعرضون أمره علي ربه. تركوه، ونسوه. كأنهم نسوه،  
وكله كان بالأمر.

من ذلك اليوم وهو في مكانه؛ الجنة أمامه ينظر نعيمها بعينه،  
وجهنم في ظهره تلسعه بنارها. يا ويله؛ أصعب العذاب عذابه؛  
"الواطي".

من ذلك اليوم وحصانها بين السماء والأرض، يرمح أمام  
القوافل ويصهل بحزنه عليها. آه يا "ستنا".



\*\*\*

كانت تبكي بجد.

\*\*\*

انصرفت نازك، كانت قلقة ومتعجلة.

راقبت خروجها من الدرب من خلال هالة شباكي التي نقر

ترايبها رذاذ مطر خفيف.

أخلاط من صياح الديكة وتسايح الفجر تتردد في الآفاق،

ونازك ترفع أطراف عباعتها، وتتفادي حفر الطريق، وتتألف

نحوي. كانت ملامحها تتكشف مع الومضات الأولى، وتتشكل في

كل مرة بوجه جديد.

كان أداؤها في ذلك الليل مدهشاً، وزادني ارتباكاً. لم استبعد

احتمال الجنون، لكنني قدرت أنه أضعف الاحتمالات.

انتظرت طويلا أن أعرف سر غيابها، وظلت هي تتخبط في  
سيناريوهات متناقضة، وتبتكر حكايات جديدة تزيدها ارتباكا.  
قالت مرة إنها كانت مسافرة للخليج.  
— وماذا كنت تفعلين هناك؟  
— الشغل كثير.

وقالت مرة إنها سافرت لتعمل مربية لبننت يتيمة، ورجعت بعد  
أن وفرت مالا يحميها من العوز.  
أسمع، وأرمي كلامها خلف ظهري. صحيح أنها أصبحت لا  
تعمل كثيرا وتتقادي السهر الطويل، لكن ذلك لا يعني أن لديها  
ما يغنيها عن العمل. أمر مثل هذا لا تخفي أماراته علي، ثم أن  
سلوكها يفضحها؛ أصبحت الآن أقل سخاء، وتحاسبني بالقرش حتي  
علي سيجارة:

— قرشي ينفعني أحسن منك.  
صادفتها مرة تشتري لعبة، كانت تجربها بفرح، وعندما رأنتني  
سألنتني:

— ألا تناسب البنت؟

— أي بنت؟

— حبيبتي، التي ربيتها هناك، سأرسلها لها في عيد ميلادها.  
كبر سيناريو "البنت" معها فاختلط عليها الكلام. قالت إن البنت  
مرضت، وهي رقدت جنبها يومين حتى خفت سخونتها. سألتها:

— أليست البنت عند أهلها في بلدها؟

— طبعا، مع أهلها هناك.

تاهت في الكلام وهي تحاول أن تمحو سهوها:

— كان حلما، هكذا يحسّ قلبي بأحوالها دائما.

— حلم يستمر يومين!؟

— هو أمر غريب حقا، لا أعرف إن كان حلما أم علما. هكذا

الدنيا أيضا، لا تعرف أهي حلم أم علم.

تجري بي من معني إلي معني ولا تبوح. أتوه لو أخذتها مأخذ

الجد.

\*\*\*

لم تصارحني نازك بسرها إلا بعد أكثر من خمس سنوات.

فعلت ذلك بمكر واحتراس، وسحبتني خطوة بعد خطوة:

\* واحدة من صاحباتي في ورطة، ولا أدري ماذا أفعل من

أجلها.

\* مسكينة صاحبتني؛ البنت معلقة برقبتها، وهي لا تعرف ماذا تفعل لها.

\* لو أخبرته لن يصدق؛ "الواطي".

فهمت الحكاية من إشاراتها؛ بنت بلا أب، ونسبها ضائع بين الرجال. ضجرت من الكلام في الموضوع، فنهرتها:  
— وما شأني أو شأنك بالأمر؟.. هي غلطتها، ولا بد أن تتحمل نتائجها.

شرحت لي أن المشكلة لا تخص الأم، وإنما تخص البنت الصغيرة:

— عمرها الآن يقترب من ست سنوات، ولا بد أن تدخل المدرسة. ذهبت أمها بها، فطلبوا شهادة الميلاد. البنت أمامهم، لكن لا بد من الورقة.

— وما المشكلة؟

— هي لم تستخرج شهادة ميلاد أصلا.

— وما دخلنا بالأمر؟

— الأم صاحبتني وأتمني أن أساعدها، ولو عندك حل دبّرني.  
وظلت تطاردني:

— هل وجدت حلا؟

\*\*\*

بكت علي كتفي بحرقه ذات مساء، ورجتني:

— دبّرني.

واعترفت:

— ليست صاحبتني، وإنما أنا، والبنت ابنتي. لا أريدها أن

تضيع في الشوارع مثلي.

هممت أن أسألها، فخطفت يدي تقبلها، واستبقت كلامي:

— أبوس رجلك؛ لا تسألني عن أبيها.

توقعت بقية الإسطوانة، فسبقتها بالكلام:

— .." الواطي".

— أقولها بلساني فقط؛ أنا التي كنت أريده، فكيف أكرهه.

وعادت ترجوني:

— من يساعدني غيرك؟

كان من السهل أن أخمن الأمر قبل اعترافها الصريح. إلحاحها

المستمر وحرصها المستميت علي إخفاء عنوانها جعل ذلك أقوى

الاحتمالات، لم يفاجئني الاعتراف.

أردت أن أنهي الكلام، فوعدتني بأنني سأحاول. انفرجت عيناها

عن ابتسامه وسط الدموع والحزن، وشهقت وهي تقبلني:

— سامحني إذا كنت أثقل عليك.

وخطفتني في حضنها:

— أه ياوعدي. في عينيك نار تحرق قلبي.  
كانت بقية السهرة عاطفية.

\*\*\*

فكرت، ولجأت في النهاية إلي الحاج حسين. لم أجد غيره  
أضمن أن يحفظ سر نازك حتي لو رفض المساعدة. ضاقت أقواس  
وجهه وهو يسمع حتي كادت تخفني:

— سرها في بير، لكن من فعل ذلك؟

— لم تخبرني، وأظن أنها لن تخبر أحدا.

— لا بد أن يكون لابنتها أب.

— بالتأكيد، لكنها لا تريد أن تبوح باسمه.

— لماذا، هل تخاف منه؟

— وربما لا تستطيع أن تخمن من يكون.

قلتها، وعددت علي أصابعي:

— عبده القهوجي، أم عثمان الكبابجي، أم رؤوف، أم..

احتضنتي أقواس وجهه بابتسامة مكرة، واقترح:

— إذن تزوجها، وانقذ الأمر بنفسك، ويظل الأمر سرا بيننا.

نفرت من الفكرة ومن المعني المستور في باطن الكلام، وهو

حاول التخفيف:

— زواج علي الورق فقط، وطلقها في اليوم التالي.

كنت خجلا من الموقف كله. نهضت، وقلت له إنني آسف  
لتدخلي في الموضوع من أساسه:

— ما شأنني بهذه الحقيرة، لن أجلب لنفسي إلا الكلام الفاضي  
وسوء الظن.

شدني من يدي لأجلس:

— لا بد ان نجد لها حلا، ولن يكون الحل إلا بورقة زواج نثبت  
بها نسب البنت.

— زواج نازك الآن لن يحل المشكلة.

شرحت له الحكاية مرة أخرى، وحددت له المشكلة بدقة:

— عمر البنت يقترب من ست سنوات، وتحتاج شهادة ميلاد  
لتدخل المدرسة.

— ست سنوات؟!!

— ست سنوات.

— وتحتاج شهادة ميلاد مزورة لتدخل المدرسة؟

— نعم.

— وقد تحتاج شهادات مزورة أخرى.

— إذا لزم الأمر.

— فهمت قصدك؛ المطلوب أن نخترع البنت اختراعا، أن

نخرجها من العدم بورقة رسمية معتمدة بخاتم النسر.

— بالضبط.

— وكل ذلك بالتزوير.

كدت أنهض مرة أخرى معذراً، لكنه شد يدي ليمنعني:

— المسألة صعبة، لكن لا بد أن نجد لها حلاً. اجلس.

وشرح لي أن هذا الموضوع خطير جداً، ويحتاج إلي رجل

كبير:

— كبير، ومعه حجاب كبير.

سمعت منه هذا التعبير من قبل، لم يكن يقصد تلك الأحجية

التي يكتبها السحرة للناس لجلب المنافع ودفع الشرور، وإنما يقصد

الكارنيهات الرسمية التي يعتبرها تعاويذ العصر السحرية:

— كل حجاب يفتح باباً، والحجاب الذي نريد لا بد أن يكون

كبيراً، ويفتح أكثر من باب.

واستمهني:

— الأمر صعب؛ لا تتعجل، ولا تسألني عن شيء. وعندما أجد

الحل سأخبرك.

\*\*\*

لم تكف نازك عن مطاردتي بالأسئلة، وزادت إحاحا مع

اقتراب موعد المدارس:

— ماذا فعلت؟



نصحتها أكثر من مرة أن تبحث عن حل لمشكلة ابنتها بعيدا عني، ونهرتها:

– الموضوع يخجلني. طلبت المساعدة من صديق ولم يرد، لن أفعل ذلك مرة أخرى.

أهملتها فترة، لم أكن مستعدة لتحمل إلحاحها المستمر، ولا مستعدة لفتح الموضوع مع الحاج حسين مرة أخرى. صرْتُ أعاملها كشئ عارض حين أصادفها:  
– سلام.

هي أيضا كانت فاترة، تشيح بوجهها عني، وأحيانا يكون ردها:

– لا سلام ولا كلام، ابعده عني.  
بعُدت، لكنني كنت أعرف كيف أجذبها إلي مرة أخرى حين أحتاجها.

\*\*\*

صحبتها إلي موزة لتقرأ لها الكف.

كانت موزة قد استقرت هنا تقريباً، أصبح سفرها لبلدها نادراً وقصيراً. حجتها أنها تدرس الماجستير، والحقيقة أنها تعيش كما تريد؛ تسكر، وتسهر على مقاهي وسط البلد، وتنتشر أشعارها وأخبارها وصورها في الصحف والمجلات. طبعت ديوانين علي نفقتها، والثالث في الطريق.

عادت من آخر زيارة لبلدها قلقة وضجرة. كانت ساخطة علي كل شيء هناك، تتحدث عن موضوع يبدو عاطفياً، لكنها لم تصارحني بشيء. تلف وتدور بالكلام وتسالني:

— هل كل الرجال يفضلون مصالحتهم علي الحب؟!

لم تصارحني، لكنني خمنت دوافعها للاقتراب مني. اشتغلتها علي مهل؛ سحبتها إلي سهرات مختلفة المذاق؛ أماكن شعبية، وموالد، وصلات للرقص.

هي أيضاً، أشركتني في سهراتها الخاصة.

أغلب أصدقائها كتاب وصحفيون، صادفت بينهم زميلي في الجامعة فايز ناصف. كان شاعر واعداداً أيام الدراسة، لكنني لا

أعرف أخباره بعد ذلك.

أخبرني باقتضاب وتعال أنه سافر فور تخرجه ليعمل مدرسا في الخليج، ثم عاد ليشغل بالصحافة. وسألني :

— وأنت؛ ماذا تعمل؟

قدمت له بطاقة التعريف، فقرأها علي مهل وبصوت عال:

— "حبيب الله الأفندي.. مرشد سياحي".

وسألني:

— كيف حصلت علي ترخيص بالعمل في السياحة بينما

شهادتك من كلية العلوم مثلي؟!!

— أعمل بدون ترخيص.

— فهمت، تعمل "خرتيا".

صدمتني الكلمة، وهو حاول التخفيف. استغرق في شرح

طويل حول معنى كلمة "خرتي" وأصلها، وقال:

— أضعف التفسيرات أن الكلمة تركية ومعناها "الفهلوي"،

والمعني ليس سيئا؛ "الفهولة" لغة العصر.

تودد إلي؛ ناواني بطاقته، وقال وهو يشير إلي رقم الهاتف:

— اتصل بي لنتفق علي موعد. أجلس أحيانا علي مقهي

«البستان» في وسط البلد، أتمني أن أراك هناك. ستجد علي المقهي

زملاء لك من المرشدين السياحيين.

تعامل فايز مع الجميع بتعال ومرح ساخر، وخصّ موزة بمرح ودود. هي ركعت قربه وأسمعته آخر قصائدها، وهو أغمض عينيه طويلاً، ثم طلب كأساً قبل أن يستفيض في التعليق علي الشعر.  
بصراحة؛ لم أفهم اتجاهها لكلامه، لكنه كان لطيفاً وأبويًا، ويتصرف كأستاذ. عموماً عامله الجميع باحترام. قدّرتُ المسألة؛ شاعر وصحفي.

لم أكن أعرف عنه الكثير.

\*\*\*

تسعد موزة بالسهرات، تتفق بسخاء، وتستبقي ضيوفها حتى آخر قطرة في الكأس. أحياناً تستبقيني معها، ومرات أهرب. أخلي الطريق بينها وبين آخرين، وأهرب. لا أريد أن أبدد نفسي في مهمة واحدة، ينتظرنني زبائن، وأمامي فرص أخرى.  
طبيعي أن أحافظ علي طاقتي. أنا رجل فقير، وضعت كل مدخراتي في شراء أرض، ورأسمالي الآن جهدي ويقظتي. لو بددت قدراتي يتوقف عملي، أجوع.  
أتابع أوضاعي الصحية بالفحص والتحليل، وأحتاط للإرهاق والتعب والضعف.

أزعجني ما تنشره الصحف عن انتشار حالات الضعف بين الرجال. قرأت طويلاً عن الموضوع، واهتديت إلي طريقة

تعصمني من هذا الاحتمال المخيف. مجرد تمرين بسيط، يمكنني أن  
أمارسه وسط الناس دون أن يشعر بي أحد، تمرين سري.  
أمارس التمرين بانتظام؛ أقبض عضلتي الأمامية بقوة، ثم  
أتركها تنبسط ببطء. أكرر ذلك خمسين مرة في كل تمرين. جرّبت،  
واسترحت للنتائج.  
أنبض في أي وقت وأي مكان لأكون علي أهبة الإستعداد،  
لكنني أهرب إذا سنحت الفرصة. أحتفظ بكل قطرة مني، أبخل  
ببهجتي.

\*\*\*

تحاصرني موزة، تسعد بكل سهرة في حينها، لكنها تصحو  
ضجرة عصر اليوم التالي. تعود لأسئلتها:  
— هل كل الرجال جبناء؟  
وأحيانا تفاجئني بطلباتها:  
— أريد شيئاً مختلفاً وأكثر إثارة، هل يمكن أن تحضر لي  
ساحراً أو عرافاً؟  
لم يكن أمامي غير نازك.

\*\*\*

تعاملت نازك مع كلامي باحتراس، وسألنتني:  
— ماذا بينك وبين هذه "الموزة"؟

— شغل، مجرد شغل.

— أي شغل يا روح أمك؛ خياطة أم تطريز؟

حسمتُ الكلام بطريقتي؛ لوَحْتُ لها بخمسين جنيهاً، وسألتها:

— نعم أم لا؟

خطفَت الأوراق الحمراء من يدي، وتبعَتني.

\*\*\*

أثار مندِيل الترتير علي رأس نازك شغف موزة، قالت إنها

ستشتري مثله، ولن تخجل من لبسه:

— جميل ، ومبهج، وفيه جِراءة.

وسألتها:

— هل أنت سعيدة يا نازك؟

— سبحانه؛ قسّم وعدل، أعطي لكل واحد حقه، الأربعة

وعشرين قيراط، نصيبه بالتمام. بالنسبة لي زادني من الصحة

وأنقصني من راحة البال، نعمده.

ودخلت عليها بالكلام:

— وأنت أيضاً، زادك في المال والجمال، وأخذ منك راحة

البال. أعطني كفك.

\*\*\*

نصَحَتْها نازك:

— احذري "الواطي"، ولا تأمني البخيل، ولا تكذبي ما تراه  
عينك.

وحددت لها المشكلة وهي تشير إلي خطوط الكف:  
— قلبك يعاند عقلك، كل خط في طريق غير الآخر؛ عكسه.  
وأكملت قراءتها بالفنجان:  
— خطوطه أوضح، ورسومه تكشف المستور.  
وقالت لها:

— هذا هو؛ قاعد بناره في قاع الفنجان، مكانه تحت رجلك،  
لكن نظره لما تحت قدميه. عينه عين صقر، وقلبه عتمة قبر.  
يهرب من سعده، ويخاف أن يعطي.  
لم أستطع أن أخمن إن كانت تقصدني، أم تحاول أن "تشتغل"  
موزة بطريقتها.

انبهرت موزة بالكلام:

— صح، كله صح، ما شكله؟  
— لا أري "براه" بوضوح، لكنني أري "جواه"؛ خواف.  
— وما آخر الحكاية؟  
— أولها كلام، وآخرها لا كلام ولا سلام.  
— والحل؟  
— الفرع الذي ينبت أعوجا لا ينعدل.

كانت موزة حزينة، لكنها عاملتها بكرم. زادتها عشرين جنيها  
علي الخمسين، ووهبتها كثيرا من ملابسها القديمة.  
أعطتني نازك العشرين وقالت:  
— تكفيني صرة الهدوم. صحيح أن مقاسها لا يناسبني، لكنها  
تنفع ابنتي حين تكبر.  
لم تسترسل في الحديث.  
عموما كنت أميل في الفتره الأخيرة إلي اعتبار حكاية ابنتها  
وهما، نوعا خاصا من أكاذيبها. لا أهتم.





فاجأني الحاج حسين بالحل:

— غدا نتسلم كل الأوراق المطلوبة، جهّز ثلاثة آلاف.

\*\*\*

ولولت نازك في وجهي:

— ثلاثة؟

— اطلبها من أبيها، لا بد أن يتحمل شيئاً.

— "الواطي".

كانت تتحدث بازدراء؛ بصقت الكلمة وسحقتها برجلها، وقالت

إنه لن يتحمل شيئاً، لأنه لا يعرف الموضوع من أساسه.

— لكن لا بد أن يعرف، هذا حقه، وليفعل بعد ذلك ما يشاء.

قفزت علي كلامي، وحسنت النقاش:

— انس موضوع أبيها، كم تريد؟

— ثلاثة آلاف.

— سأدفعها علي حذائي.

أحرقفت جنيتها، وذرت رماده في وجهي:

— ملعون أبوها؛ "الواطي". وملعون أبو الفلوس.

\*\*\*

صحبني الحاج حسين معه لتسلم الشهادات. كان يجاهد صعود  
الأدوار الثلاثة بتعب مثل ملاك عجوز يصعد إلي السماء. ضبَطْتُ  
خطواتي علي قدر جهده وهو يصعد ويحدثني:

— الكبير كبير، نتعب حتي نصل إليه، وأحياناً نتعب ولا نجده.  
عذرنا أننا نحاول، المسألة تستحق.

أعطاني الأوراق المزورة لأسلمها لنازك، وطلب مني ألا  
أخبرها بأي شئ عن تدخله في الموضوع، ثم فرد شهادة الميلاد  
أمامي وأشار بإصبعه:

— بدون هذا التوقيع وهذا الختم لا وجود للإنسان في الحياة.  
ربك يخلق كما يشاء وهم الذين يُثبتون وجودك من عدمك في هذه  
الدنيا. أختامهم حجج، وتوقيعاتهم قضاء نافذ. وكل شئ عن أرزاقنا  
وأعمارنا مكتوب عندهم.

\*\*\*

أعطيت نازك الأوراق.

شكرتني، لكنها تحسرت علي الآلاف التي دفعتها:

— ورقة الزور أصبحت أغلي من كلمة الحق.

أفكارها لاتزال تدور تحت سقف الآلاف، بينما الناس يتحدثون

بلغة "الأرنب".

تعني الكلمة في السوق المليون جنيه، وهناك حكمة شائعة تقول إن اصطيد "الأرنب" الأول صعب، لكنه يفتح الطريق إلي المزيد، يتوالد بسرعة وبلا جهد، تماما مثل ذلك الحيوان الجبان سريع التكاثر.

الفرص ليست سهلة، ولكنها ليست صعبة جدا. يمكن أن تأتيك علي مهل لو أحسنت استغلال الظروف، ويمكن أن تأتيك فجأة بضربة حظ.

أنا شخصيا كنت أزحف نحو المليون، أتقدم ببطء لكن بثبات. جمعت الآلاف الأولي بعلمي في السياحة، وقفزت نحو عالم "الأرنب" بضربة حظ.

صادفني الحظ في قطعة أرض، كسبت منها أربعمئة ألف جنيه دفعة واحدة. كانت عشرة أفدنة، اشتريت الفدان بألفين، وبعث المتر بعشرة جنيهات: "١٠ × ٤٢٠٠٠ = ٤٢٠ ألف جنيه".

لو صبرت علي البيع عاما آخر لعبرت حاجز المليون بقفزة واحدة، لكن منازعات الأراضي والعقارات التي انتشرت في تلك الفترة أفلقتني بشدة، ففضلت أن أبيع.

لا تكفي مستندات الملكية لحفظ حقاك مهما كانت صحيحة. المهم حماية الحيازة. لو وضع أحد أصحاب القوة أو الحيلة يده

علي أرضك أو شقتك فعليك السلام. أمامك صراع طويل، بلطجة ومحاكم ومدعي اشتراكي. لن تحصل في المساومات المعقدة الطويلة إلا علي ما دفعته للشراء، وربما تخسره أيضا.

سيواجهك خصومك بعقود تاريخها أسبق من عقدك، إما أنها مزورة، وإما أن تكونوا جميعا ضحايا نصاب باع الأرض لأكثر من واحد. المهم في هذه الحالة أمام القانون هو الحيازة، وضع اليد، البلطجة. ثغرات القانون كثيرة، وحيل المحامين أكثر، والشاطر يكسب.

قادني لضربة الحظ نزيل في لوكاندة "الأنوار". صاحب مصنع أقمشة في الغربية، يتردد علي اللوكاندة باستمرار لتسويق إنتاجه لدي تجار الجملة. يعتمد علي أحيانا في ترتيب سهرة، أو تدبير دولارات يحتاجها فجأة وبكميات كبيرة.

كان ذكيا ولبقا، ينفق بسخاء، ويتحرك بنشاط في كل الاتجاهات؛ دولارات، عقارات، استيراد، تصدير، أي شيء. ويقول: — من لا يعرف كيف يكسب هذه الأيام، لن يمك "الأرنب" بيديه أبدا.

رأيته يشتري الأراضي بحماس، يدفع المائة ألف في عقد واحد بلا تردد ولا خوف. وسمعه ينصح من حوله:

— زماننا هذا ليس زمن صناعة ولا زراعة، هو زمن صناعة

فلوس وزراعة "أرانب"، والأراضي أسرع طريق.

هو الذي دلّني علي الأرض، ونصحتني:

— لا تتردد، اشتر، ولن تنسي اسمي أبدا، ستتذكر دائما أنني

كنت مفتاح سعدك.

أغررتني اللعبة.

كيف أنساه؟!.. نصيحته الثمينة اختصرت لي نصف الطريق

إلي عالم "الأرانب"، ثم أن قضية أراضيهِ الشهيرة أمام المدعي

الاشتراكي جعلت اسمه معروفا لكل الناس؛ الغرباوي، أبو سريع

الغرباوي.

أنا نجوت بنفسي مبكرا، بعث الأرض، وهربت بفلوسي إلي

البنك، أودعتها بالدولار.

ضيعت فرصا كثيرة بخوفي، لكنني في النهاية أحسن حالا من

غيري، خاصة زملاء الدراسة. سعداء الحظ منهم عملوا بالتدريس،

ويحلون مشاكلهم بالدروس الخصوصية، أو بالسفر للخارج. الأكثر

طموحا عملوا في الجامعة أو في مراكز البحوث، وحصلوا علي

شهادات بالدكتوراه. أصادف بعضهم أحيانا، فقراء ومغرورون،

الدكتور فلان؛ طظ.

\*\*\*

اشتريت بعدها شقة في المهندسين.

أوجرها مفروشة للسياح، ويزيد سعرها يوماً بعد يوم مع تزايد إقبال العاملين في الخارج علي شراء العقارات. لو حسبت رصيدي الدولار والشقة بأسعار السوق اليوم؛ لوجدت أنني اقترب من اصطيد "الأرنب" الأول.

لا أبخل علي نازك بخدماتي، ولا أنسي أنها كانت أول من وضع خطواتي علي طريق الفلوس. أستعين بها لتنظيف شقتي المفروشة، أو لخدمة النزيل. يعجبها الزبون أحياناً فتنام. تغيب يومين أو ثلاثة وتعود ساخطة:

— بماذا تحدث زبائنك عني؟.. حتي الكلاب أصبحت تطمع في جسمي، إما قلة الأدب، وإما: "ذهبي لحالك يا بنت".

تشيح بوجهها بعيداً عني، وتمضي وهي تسحق بصفتها:  
— "الواطي".

تمثيلات متكررة؛ تغيب أياماً ثم تعود من تلقاء نفسها وتطلب الشغل:

— أحتاج مصروفات للبننت. المدرسة إنجليزي، ومصروفاتها كثيرة.

\*\*\*

سألتها عن اسم البننت، فتعجبت:

— ياه؛ بعد كل هذه السنين تذكرت أن تسألني؟

نسيت السؤال، لكنها جاوبتي بعد أيام وأنا أعود بها لشقة  
"المهندسين":

— نور، اسم البنت نور. عمرها الآن تسع سنوات. تقرأ  
المجلات وتكلمني بالإنجليزية: "تأنيك يو يا ماما.. هاو آر يو يا  
ماما"، حلاوتها.  
وعادت للنكد:

— أما اسم أبيها فأنت تعرفه أكثر مني، أنت الذي اخترعته؛  
"السيد سيد"، اسم لا معني له، ولا يساوي ثلاثة جنيهات، وأنا دفعت  
فيه ثلاثة آلاف. هل تريد أن تعرف شيئاً آخر؟  
ماذا أريد أن أعرف؟

لم أر ابنتها حتي الآن، ولا أعرف أين تتركها عندما تغيب عن  
البيت، ولا أدري لماذا تبالغ في إخفاء عنوانها بهذه الطريقة  
المريبة، لكنني لا أريد أن أعرف شيئاً، هي مجرد ملاحظات لا  
أشغل نفسي بها.

تمثيلياتها وحكاياتها كثيرة، وقد تكون مجرد أكاذيب وأوهام.  
أنا مشغول عن كل تلك التفاهات، أحلم بأرنبني الأول في صمّت.  
ولا أطلع أحداً علي أسرار أعمالي. أقف أحياناً أمام شباك  
المستدير، وأتأمل نفسي في الهالة المقدسة بملامحي الأرنبية:  
— حبيب باشا الأفندي .



\*\*\*

رصيدي في البنك والعقود باسم آخر: "حبيب الله حسن شحاتة  
الذّكر". لا وجود لاسم حمروش في أوراق الرسمية. أشك أحيانا  
في وجوده لولا تخاريف عمّي.

زرت عمّي بعد غياب طويل؛ سنوات. لا أدري بالضبط ما الذي دفعني لذلك، ربما ذكرني به اسم حمروش الغائب في أوراق الرسمية، أريد أن أسمع عنه. لم أكن واثقا من وجوده.

وجدته في مكانه، كما هو. كل شيء حوله تغير إلا غرفته الصغيرة. أزيات بيوت وقامت مكانها عمارات حديثة. حتى البيت الذي كان يلتصق بغرفته اختفي. تغير المكان؛ ورش ودكاكين، وباعة علي الأرصفة. لكن كل عمليات الهدم والبناء تجنبت غرفته العجيبة، ظلت في مكانها متفردة وسط المشهد، كأن الجميع كانوا حريصين علي استمرار وجوده.

كان نائما في جلسته كعادته، والغبار يكسو شعر رأسه ولحيته. نقرت جمجمته بإصبعي، وأسمعت صرير الكرة الأرضية، ففتح عينيه، بدتا كجرحين يهمان بالالتئام:

— من أنت؟

— أنا حبيب الله الذكر، ابن أخيك، هل نسيتني؟!

تحسّسني، واطمأن:

— نعم؛ أنت "الدّكر"، تشبهه.

ذكرني بأننا من سلالة حمروش؛ أشهر من جلس علي مقهي

"الدّكر"، وقال:

— المقهي كان هنا، وكل الدنيا ابتدأت من هنا. وجدنا كان

صاحب الأريكة العالية. إذا قعد؛ دكة لباسة ترباس علي باب قلعة،

وإن نهض للوعد؛ يرف طرف الشال الحريري علي كتفه، كأنه

راية السلطنة. تشهق وراءه العيون.

في الشال ورود بعيون، سهرت عليها الإبر ليالي طويلة

تطرزها، لكل عين شكل، ولكل نظرة اتجاه، والورود ألوان، وكل

لون من أوله لآخره؛ الأحمر لآخر حمرته، الأخضر من أول

الإخضرار.

وكان.. وكان..

لكن بعد ليلة الجنية، تاه جدنا حمروش.

\*\*\*

يحكي عمّي عن ليلة طلوع الجنية كأنه شاهد كل شيء:

— جدك حمروش لم ير الجنية بعينيه، لكنها أحس بها في

نفسه، كان نائما يتقلب بين الأعتاب عريانا، وما علي جسمه غير

العمامة وأوراق شجر نثرها نسيم الليل، وتحت سرته حمامة متعبة،

فردت جناحيها ونامت بين فخذيه.  
أحس بحضورها هالة تتفتح فوق رأسه، ففتح عينيه في الحلم،  
وكلمها وكلمته؛ هو نائم، وهي صاحبة.  
تقلبت في الهالة كل وجوه النساء التي رآها، ومع اختفاء آخر  
لقطة كلمته من الهالة الفارغة:  
— كانت هذه آخر الليالي بيننا.  
ناداها وتاه في الأسماء:  
— يا سميحة .. يا مديحة .. يا صبيحة ..  
ينادي والهالة الفارغة تتسع فوق رأسه. ظلت تتسع وتتسع  
حتى أطل منها الفجر وانكشفت الدنيا، وترددت أخلاط التسابيح  
وصيحات الديكة في أرجاء السماوات. قام وفي شفتيه بقايا نداء:  
— يا هي ..  
من ذلك اليوم تاه. رمي صرّة هدمه خلفه، ودار في الشوارع  
والأسواق وما علي جسمه غير العمامة والشال الحريري. يبحث  
عن الوجه الذي لم ينكشف له، يقلب نظراته في كل امرأة تصادفه،  
ويسألها:  
— هل أنت هي؟  
تضحك النسوان من عريه، وتفر الوجوه من طريقه، وهو  
يحجل خلفهن وينادي:

— يا هي ..

بعد الغروب يسمع صوتها يناديه:

— يا حمروش ..

في النداء ضحكة تتقلب في نسيم الليل. تفر أمامه من نسمة  
إلي نسمة، وتُحزّجه من حال إلي حال. يفرح وهو يتعثّر في عتمة  
الأرقة، ويلهث وراء الصوت:

— يا هي ..

\*\*\*

زحفت علينا العتمة، وعمّي لا يزال يحكي عن جدنا الذي  
انصرف عما تراه عيناه، وشغل نفسه بما لا يدركه بصره؛ الوجه  
المستحيل، الجنية.

تركته يحكي وانصرفت. كنت أسمع خلفي صرير الكرة  
الأرضية وهي تدور علي إيقاع صوته الرتيب.

\*\*\*

وضعتني تخاريف عمّفي حالة غريبة. تمشيت طويلا دون  
هدف، وأنا أفكر فيما سمعت.

لا أفهم معنى أن تهب حياتك لفكرة، تظل تطاردها وتطارذك  
حتى يضيع عمرك. أنا أتشبث بنفسي، أتمسك بتلك الفرصة النادرة؛  
الجسد.

أمارس تمرينى السرى وأنا أتجول فى الخان، أنبض بقوة  
لأستجمع نفسى. أتأهب لليلة ساخنة، وأذنى تبحث عن صوت نازك  
فى الزحام.

شغلتنى أفكارى عن مواعيد مهمة، وكاد يفوتنى أداء الواجب  
للحاج حسين.

\*\*\*

ماتت ماريًا اليونانية، وعرفت الخبر متأخرا من عبده  
القهوجي.

شربت قهوتى على عجل، وسارعت إلى مجلس العزاء.  
لاحظت أن الحاج حسين لم يبخل على أرملة أبيه بشئ؛ أقام سرادقا  
فخما، واستأجر مقرنا إذاعيا معروفا، ودفع له الآلاف.

وصلت فى وقت مناسب لتسجيل حضوري. كان كبير  
الفراشين يذيع قائمة بأرقام تليفونات المقرئ المشهور، والشيخ يعدل  
عمامته ويتأهب لتلاوة "الربع" الأخير.

لم أنتبه للمفارقة إلا بعد أن انتهى المقرئ من التلاوة، وطلب  
من الحضور قراءة الفاتحة لروح الميتة. بدا كل شئ عاديا، لكننى  
لمحت الحاج حسين يرسم علامة الصليب على صدره بسرعة، قبل  
أن يبسط يديه ليقرأ الفاتحة.

لا يهمنى الموضوع من أساسه، لكن الموقف لفت نظري.

سألت الحاج حسين على استحياء، وأنا أصحبه إلى بيته بعد انتهاء الطقوس، فقال:

— المرحومة ماتت على دينها، لكنني أقيمت العزاء بالطريقة التي أعرفها. خالقنا يتقبل دعواتنا أيا كانت لغاتنا وأدياننا. هي أيضا كانت ترسم علامة الصليب وتقرأ الفاتحة وتطلب الرحمة لموتانا، وكنا نشكرها لذلك. ألا تتذكر يوم عرفت بموت أبيك؟

فاجأني أيضا بأنه دفنها في مقبرة عائلته المسلمة، وقال:

— الروح تصعد لربها بدينها وأعمالها، أما الجسد فهو من تراب، وأي تراب يلمه. الأديان للبشر أما الأرض فواحدة، لا توجد أرض مسلمة وأخرى نصرانية، الأرض على دين خالقها. أظن أن الحاج حسين تصرف على هذا النحو من باب السهوه، ولم يكن لماريا أصدقاء فينبهوه إلى سهوه؛ كلامه مجرد تبرير. لم أتطرق للمسألة الأخرى، قدرت أن رسمه للصليب كان إيماءة طيبة لروح ماريا، مجرد إيماءة.

\*\*\*

أصر الحاج حسين على أن أتناول عشاءي في بيته. أمام البيت وليمة كبيرة بلحم عجل ذبح في الصباح تحت نعش ماريا. دعاني الحاج إلى داخل البيت بعيدا عن وليمة الفقراء وعابري السبيل، وخصني بجزء كبير من فخذ العجل.

جلس جنبى يحدثنى عن حزنه، ويتأمل أمور الحياة والموت.  
الحقيقة كنت مشغولاً؛ أمضغ، وأنبض بقوة. أضخ أفكارى فى اتجاه  
ليلة ساخنة.

ربما ضجرتُ من حديثه فقلت:

— لماذا تحدثنى عن الموت؟!.. حدثنى عن تلك الفرصة

النادرة؛ الحياة.

تراجع برأسه إلى الخلف، وضافت أقواس وجهه:

— لا زلنا فى ليلة العزاء، فعن أى شئ أحدثك؟.. هل أحدثك

عن الدولارات، أم عن الأراضي، أم النساء؟

تنبهت لخطأى، فوثبت قرب كتفيه معتذراً:

— سامحنى، كنت أريد أن أخفف عنك، أن ألهيك عن حزنك.

صالحته بالكلام، وسحبته فى حديث طويل عن علاقته بأبى.

كنت حريصاً على إرضائه، لكن الحديث تشعب بنا. وجدت نفسى

أحدثه عن الفرص الذهبية فى العقارات، واسم أبو سريع الغرباوى

الذى يدوى كالتبيل فى عالم الأعمال.

نفر الحاج حسين من الاسم. هو لا يعرف الرجل شخصياً،

لكنه يسمع من أصحابه. انتقده بحدة:

— الغرباوى يسحب فلوس التجار للمضاربة فى الأراضي،

يغريهم بالربح السريع فيهملون تجارتهم ويجرون وراء أرائب



جهنم. هو نفسه أهمل المصنع الذي ورثه عن أبيه، أغلقه تقريبا.

\*\*\*

يرفض الحاج حسين الإتجار بالأراضي، يكره فكرة تملك الأرض أساسا، ويكاد يصل بكلامه إلى درجة التحريم. ويقول دائما:

— الأرض ملك لخالقها.

— لكنها تجارة حلال، وربحها كبير هذه الأيام.

— أساس التجارة أن تُقربَّ البعيد، تشتري من مكان وتبيع في مكان، تقربَّ الشيء لمن يطلبه. أما ما يحدث في الأراضي هذه الأيام فهو مجرد الأعيب، تبعد القريب وتعطل المصالح، ولا بركة في مكاسبها.

وضرب لي مثلا:

— تشتري بعشرة، وتبيع بعشرين: وبعدها يقفز السعر إلى خمسين، مائة، ثلاثمائة، ألف. وعلى طول هذا الشوط تظل الأرض خالية، لا يد هدمت، ولا يد بنت، تأمل ماذا فعلت بمن يحتاج هذه الأرض فعلا للسكن أو للعمل؛ أنت باعدت بينه وبينها، طوّلت عليه الوقت، ثم أرهقته بزيادة السعر.

— لكنك تملك بيتا ومحلا.

— شراء بيت للسكن أو محل للعمل شيء آخر، السكن والمحل

من لوازم حياتنا، ضرورة.

— كلامك يذكرني بالشعار القديم: "الأرض لمن يزرعها".

ونبهته:

— زمن الشعارات انتهى يا حاج.

التفت إلى بانتباه وعصرني بأقواس وجهه:

— أبوك كان حلاقاً؛ أليس كذلك؟

فاجأني اتجاه الكلام، وهو عاجلني قبل أن أرد:

— صنعة الحلاق أن يقص الشعر أن يهذبه. لكنك لم تتعلم شيئاً

من أبيك.

احترت في فهم المعني، وهو كان قاسياً:

— هذب كلامك يا حبيب أفندي عندما تكلم عمك الحاج حسين،

قص من لسانك ما لا يصح أن يقال، الكلام أيضاً صنعة وذوق.

أعرف كيف أعذر بشكل يرضيه، فعلت ذلك وانصرفت.

الحقيقة؛ كنت ضجراً من صحبته، أرسم ليلتي في اتجاه آخر.

كان الحاج حسين في النهاية رجلاً من رجال ذلك الزمان

القديم، زمن "سى كلام"، أبعد سماواته أن يعد الفلوس بالآلاف، وأن

يصادق الموظفين الكبار. أنا أخلق الآن في سماوات لا تطولها

أحلامه.

\*\*\*

علمنى أبو سريع الغرباوى لغة الأرانب، وعرفنى برجال  
كآلهة الأساطير، يقبعون خلف الأستار، ويصرفون أمور الكون  
بالتليفون:

— ألو ، سيحضر إليك حبيب بك الأفندي، دعه يختار المحل  
الذى يريد. اكتب العقد وسلمه المحل فى نفس اليوم، وبمحضر  
رسمي، مفهوم؟

دفعت، وفزت بالتوصية الذهبية. سأملك محلاً فى أبرز منطقة  
بالخان، وبثمان بخس. المحل تحت الحراسة، قيمه الخبير الحكومى  
بعشرين ألف جنيه، وأنا دفعت فوقها ثلاثين ألفاً لأختطفه فى الخفاء،  
فرصة نادرة.

موعدى غداً.

\*\*\*

الآن يشغلنى شئ آخر، أبحث عن نازك برائحة شهوتها  
الفواحة.

لم أستطع الانتظار طويلاً فصرفت أفكارى عنها، واتصلت  
بموزة أكثر من مرة. وجدت تليفونها مشغولاً، فخمنت أنها فى  
البيت، وقدرت أنها وحيدة تبث مللها فى مكالمات طويلة. ذهبت  
إليها.

فوجئت بنازك تفتح الباب، هى وجمت وأنا تلعثمت. أخبرتها

أننى كنت أبحث عنها طول اليوم، فسخرت منى:

— وأخيرا وجدتي؟؟

ثم فردت ذراعها فى اتجاه غرفة النوم:

— تفضل؛ "الموزة" فى انتظارك. نتفتها فى أول الليل، لم

أكن أعرف أننى أجهزها لك.

كان وجهها قاسيا يتشكل بأكثر من صورة، لكننى تقاديت

الإحساس بها، أهملتها. لا يلىق بى أن أتورط فى جدال معها. فى

النهاية ارتحت للموقف، يجب أن تفهم حقيقة وضعها.

استقبلتتى موزة بفرح وهى لاتزال معلقة بسماعة التليفون،

كانت تتحدث عن آخر قصائدها. خمنت من لهجتها أنها تحدث فايز

ناصر:

— باى باى يا أستاذي.

أنهت المكالمة، وقالت لى:

— أتخيل الخيالات، وتحدث؛ أندهش جداً. أختبر الأمر،

ويكرر. قد تمر فترات تشوش لكن فى النهاية يحدث ما تخيلته،

أشاهده بعيني. ماذا أقول فى ذلك؟.. هل تصدق أننى كنت أتوقع

زيارتك الليلة رغم أنك لم تفعلها أبدا بدون موعد؟

وناولتتى ورقة:

— اقرأ القصيدة. سأغير ملابسى بسرعة، وأعود لأسمع رأيك.

\*\*\*

كانت القصيدة من أربعة سطور:

— عين حبيبي بعثرتني

أخلطاً من الحنطة والفول البازلأء

تركنتى للديكة

تنقر شهوتى فى عراء الشارع.

أستطيع أن افهم المعانى رغم غرابة المفردات والتراكيب،  
لكنتى لم أتوسع فى التعليق، أبديت إعجابى باقتضاب مقتبساً تعبيراً  
غامضاً سمعته ذات مساء بعيد:

— أجمل ما فيها هو تلك "اللغة الجديدة".

— هذا ما يقوله الأستاذ فائز دائماً عن أشعاري.

لم تكثف موزة بتعليقي؛ قرأت القصيدة بصوت عال، وسألت

نازك:

— ماذا تفهمين من هذا الكلام؟

— فيه وجع، لكن بماذا تفيد الشكوى من المكتوب؟!؟

— وما المكتوب يا نازك؟

حاولت أن تشرح فكرتها عن المكتوب. كانت أقرب إلى  
القانون الطبيعى الغريزي، مضافاً إليه عوامل الوراثة والوضع  
الاجتماعي، كل ذلك يجعل السلوك إجبارياً.

استعجلت الشرح لأنهي تلك الثرثرة، وقلت لموزة:

— كأنها تقصد "الجنيات".

كانت زلة لسان مني، حماقة، وردت الجاهلة:

— نعم؛ هو شيء مثل هذه الجنيات، أمي كانت تحدثني عنها.

تسكنك وتصرفك عما تريد أنت، وتُسخرُك لما تريد هي. نعم جنيات.

نصحت نازك أن تتصرف قبل أن يتأخر الوقت، فذكرتني

ببرود:

— ألم تخبرني أنك كنت تبحث عني؟

لاحظت موزة ضجري بنازك، فكررت النصيحة، وقالت لها:

— لم أعد أريدك في شيء، لفي لى سيجارتين وانصرفي.

لَفَّت، وانصرفت. لم تستطع أن تخفى غضبها، شتمتني وهي

تغلق الباب:

— لم أنتبه لنصيحة أمي، كانت تحذرنى دائما من "الواطي"،

وتقول لي: "دخوله مكر، وخروجه غدر".

تغابيت؛ سألت موزة عما كانت تقصد، فقالت:

— أظنها تخصني بالكلام، دائما تحدثني عن ذلك "الواطي"

الذي يظهر في فنجاني، تصفه كما تراه، وكما أعرفه بالضبط. هذه

المرأة مدهشة.

\*\*\*

صارحتنى موزة فى تلك الليلة بمشكلتها. قالت إن الرجل الذى  
تحبه جبان:

— يحبنى؛ أنا متأكدة. لكنه يعتبرنى شيئا محرما، مقدسا إلى  
درجة التحريم. يخشى أن يفتضح أمره، فيعاقبه أهلى على جرأته،  
ويفقد منصبه. لا قيمة له دون رعاية أبى وأخوتى.

جده وأبوه كانا من عبيد الغوص على مراكب عائلتى. أبوه  
غواص فتك به سمك "القرش" فى شبابه، وجده "نهام" يرافق مراكب  
الغوص بالغناء؛ عمّر الجد طويلا، وظل طول حياته فى رعاية  
أهلى.

كان أبى يُقربّ الجد ويرعى حفيده، ربما تعويضا له عن ابنه  
الذى مات فى البحر، وربما لأنه يحب سماع أغانى "النهام"  
العجوز. كان صوت الجد شجيا ومقدسا، يهب من عمق الأزمان،  
مسكونا بأصوات البحر ولمعات الأصداف. لازلت أذكر أغانيه  
البحرية الحزينة فى مجلس أبى.

الولد الحفيد كبر، هو حبيبي. رعاه أبى حتى أكمل تعليمه فى  
الخارج، وعينه فى منصب كبير.

يحبنى بجنون، لكنه يخاف أن تفلت منه إشارة تقضح حبه لابنة  
أربابه؛ درتهم المصونة. تسكنه أرواح أسلافه العبيد؛ العبد يعرض

نفسه للموت ليلتقط اللؤلؤة من أعماق البحر، لكنه لا يعتبر نفسه صاحب حق فيها، يخاف أسياده.

مرات تعدت أن أشاغله، أن أتصرف معه بليونة تقضحه، أن أحرره من العبد الذى يسكنه. نظرت، ولمست، وتنهدت حتى مللت. ومرة سألته بوضوح: "ماذا تريد مني؟".

انتظرت أن يقول شيئاً، لكنه زاغ بنظراته بين رجليه. أنا ثبتت عيني عليه، حاصرته؛ كلما رفع وجهه وجدنى أنظر إليه. بكى؛ المرة.

يخشى أن يقترب منى فيغضب أهلي، ويخشى أن يقترب من غيرى فيغضبني. لا تنس أننى أيضاً من أسياده.

\*\*\*

قالت موزة أنها تحبه رغم كل شئ. حدثتني عنه طويلاً، وسألتني:

— أهو القدر المكتوب داخلنا الذى نتحدث عنه نازك؟

\*\*\*

ليلة عجيبة.

كانت موزة تغنى تحتى من أغاني بلادها، وصوتها يشب وينحسر مع تموجات الخدر:

— حننٌ عليهم.. يا نوحده حنن عليهم



صَعَبَ عَلَيْهِمْ.. ترى البحر بارد صعب عليهم  
تَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ.. ترى حبال الغوص تقطع أيديهم  
عَيْنُهُ عَلَيْهِمْ.. القرش في الهيرات عينه عليهم  
وكان صوت نازك لا يزال يعوى في الشارع:  
— يا وعدى..

لعنت اليوم من أوله؛ عمِّي، والحاج حسين، ونازك. ولعنت  
موزة أيضا؛ رفستها ونمت.

هنأتنى نازك بالمحل الجديد بطريقتها الخاصة؛ طبّلت على  
الباب بيدها، وهزت وسطها:

— "سلامتها أم حسن.. م العين ومن الحسد".

أول مرة أراها بعد ليلة موزة، طلبت منها أن تسكت لأن  
صوتها يذكرني بصوت عدوية، ويزعجني مثله، فقالت:

— لكنه يعجبني؛ حسّه طو. الغناء ليس صوتا وإنما إحساس.

— لا أحب أغاني الضياع.

— غدا تضيع وتحبها، قل: "إن شاء الله".

كانت كارهة وصوتها يقطر مرارة. سألتني:

— هل دفعت لك موزة ثمن المحل؟

وعاجلتني بسؤال آخر:

— ماذا ستفعل به؟؟.. أظنك ستفتحه صالونا للحلاقة؛ ألم يكن

أبوك حلاقا؟

حاقدة، وسافلة أيضا. سألتها بازدراء:

— وأنت؛ ماذا كانت صنعة أبيك؟

— كان قرداتيا؛ درّب أمى عامين على "نوم العازب"، ومات.  
طبّلت على الباب طبّل القرداتي، وهزت وسطها:  
— "الليل.. الليل يا ميمون".

سدّدت أذنى عن كلامها، وتجاهلتها تماما حتى انصرفت.  
تشاغلّت بمراجعة مساحة المحل وفحص توصيلات الإضاءة،  
وودعتها ببصقة.

غابت عن الخان طول النهار، وظهرت آخر الليل على عتبة  
شقتي. وجدتها تنتظر رجوعي، وقد أسندت خدها على خشب  
الباب، ونامت فى انتظارها الطويل.

— ماذا تريدين؟

— أتيت لأصالحك. أعرف أنك كرهت كلامي، لكن اعذرنى؛  
شراؤك المحل فاجأني، وزعلت لأنك أخفيت الأمر عني.  
ثم مالت علي، وبدأت اللعب:

— إذا كان لا يعجبك نوم القرد العازب؛ طبّل لى أنت، وسأنام  
لك نوم البحر للسماء. أذهب بك لآخر الدنيا، وأعيدك لأولها مرة  
أخري.

أفهم هذا البرنامج؛ هى لا تريد أن تضيع أى فرصة للاستفادة  
مني، وتحاول الآن أن تدارى حقدّها الذى ورطها فى كلام النهار.  
عموما كانت لدى دوافع خاصة للتغاضى عن سخافات

الصباح.

سألته عن تعليقات تجار الخان على وضعي الجديد، فقالت إنها لم تسمع أى كلام من أى إنسان، لأنها كانت مشغولة طول النهار باحتفالات أول أيام "عيد ستّا"، وأخبرتني أنها ظلت تصرخ وسط النساء حتى بح صوتها.

لا أفهم معنى الصراخ فى يوم احتفال. سألتها عن ذلك باقتضاب، فقالت:

— عيدها ثلاثة أيام؛ أولها "يوم الدخلة"، وهو يوم البكاء والنواح عليها. وثانيها "يوم الجلوس"، وهو يوم شتم "الواطي". وآخرها الليلة الكبيرة؛ "ليلة الحساب"، وفيها فرحنا. ولعنت "الواطي":

— منذ جاءه الجاسوس بالخبر صام "الواطي" عن النوم والكلام، وظل شهرا بطوله يدبّر الأمر، وهو قائم على رجليه فى الديوان. مر الملائكة على مجلسه فى الليل، وسمعوه يحدث نفسه بالشر. كتبوا الكلام فى الورق، وسجلوا المواعيد.

أزعجنى إيقاع صوتها، فأغمضت عيني، وطلبت منها أن تطفىء النور وتغلق الباب خلفها إذا أدركنى النوم.

استمرت تحكى عن "يوم الدخلة". كان صوتها المبحوح ينخفض طويلا، ثم يرتفع فجأة باسم "الواطي" فيجبرنى على الانتباه.

\*\*\*

حكّت نازك:

— ليلةٌ وقوف "الواطي" خلف الأسوار؛ سمعت "ستنا" دقات  
الطبول، فظننتها طبول الفرح والعشق. سهرت تزوّق نفسها لساعة  
"الدخلة"، فرشت شعرها، وبانت بشوقها تتقلب على نفسها. جلدها  
بساتين وردها، وكل بستان بلد بعطر ولون؛ غير أى عطر وأى  
لون. وهى تمشى بيدها على جلدها من بلد إلى بلد، وتُسبِّح حسنها؛  
فرحانة بنفسها.

فوق، ما بين السماء والأرض؛ كانت قوافل الستات تتاديهن:  
"تعالى عندنا"، وكان حصانها ينظرها، ويرى أبعد مما ترى، فيشب  
على حافريه ويصهل بحزنه عليها.

"يوم الدخلة"؛ دخل عليها "الواطي" من باب الفتوح بعين ساكنة،  
كما دخول الموت على القلب الحي. وزحفت جيوشه خلفه من كل  
الأبواب، وفوقها رايات بكل ألوان الشر، لكن "ستنا" لم تقهم. هى  
بنت السماء، وكل ألوان الدنيا فى عيونها ألوان فرح.

رمى "الواطي" شباكه وصادها حية. ضيق الخناق وجرها  
بالحبال، وهى وسط خيوط الأسر مذعورة؛ ترفرف لفوق، والحبال  
تشدها للتراب. وصهيل حصانها الحزين يهب ويشب ما بين السماء  
والأرض؛ آه يا "ستنا".

"الواطي" دار بها على الأبواب، فضحها بالطبل والمزمار. من  
يومها وفي كل طبلة من وجعها صوت، وفي كل مزمار آه.

\*\*\*

لم تمكنني نازك من النوم؛ لفتت ودارت بالكلام، ثم طلبت سلفة  
خمسمائة جنيه. لم يعجبني هذا الابتزاز، لكنني فضلت ألا أصدها  
تماماً؛ أعطيتها مائة جنيه، سلفة بشروط محكمة.  
ردت الفلوس في اليوم التالي، لكن إيصال الأمانة لا يزال في  
خزانتى حتى الآن؛ هي رفضت أن تسترده.

\*\*\*

أحيانا أتأمل بصمة إصبعها على الورقة، وأغوص في دواماتها  
الحلزونية. يأتيني صوتها المستحيل من عمق الدوامة كأنه يأتي من  
عمق الانفجار الأول، النبض الأول:  
— ياوعدي.

\*\*\*

يومها؛ كنت مشغولاً مع العمال بتصميم ديكورات المحل.  
نزلت نازك من سيارة نصف نقل صغيرة أمام الباب. كان وسط  
العربة كرسى مفروش بقطيفة حمراء، ترقص فوقه شابة بملابس  
حمراء أيضاً، ووجهها مصبوغ باللون نفسه، وحولها نساء يطبلن  
ويغنين بحماس:

— "شدّى الحيل ياستنّا.. زیدی النار یا ستّنا".

خَمَّنتُ أنّها رتبتَ نفسها للاحتفال بشرائي للمحل بطريقتها  
الخاصة، لكن تصرفاتها خالفت ظنوني. دخلت على بزغودة كأنها  
نباح كلب، ثم أخرجت لفة فلوس من جيبها، وعدت عشر ورقات  
حمراء على راحتي، عشرة بعد عشرة، وقالت:

— أشكرك يا بك؛ فلوسك في يدك.

فهمت قصدها لكنني تغافلت، وسألتها:

— من أين لك هذا؟

— وهل أسألك نفس السؤال؟.. عموما هو واحد أعرفه  
ويعرفني عن بعد، طلبت منه أن يسلفني الخمسمائة جنيه فأعطاني  
ألفا، وعرضت عليه أن يكتب إيصالا فرفض وقال لي: "عيب يا  
بنت يا نازك".

أخرجت عشرة جنيهات أخرى، أحرقتها على كفها، وذرت  
رمادها في وجهي:

— ملعون أبو الفلوس.

لست بخيلا، لكنني لا أحب هذه الطريقة في التعامل. لماذا  
تعتبر نفسها صاحبة حق فيما أكسبه؟!

ناولتها الإيصال فأعادته إلي جيبي، وقالت وهي تقفز في  
العربة:

— لا أشغل نفسي بالورق، فاحتفظ به لنفسك. انقعه، واشرب  
ماءه قبل النوم؛ ربما يشفيك مما أنت فيه.  
تجاهلت سفالتها، وسألتها ساخرا:  
— إلى أين أنت ذاهبة بهذه الزفة؟  
— ذاهبة مع أخواتي نشد أزر "ستنا"، ونغيظ عدونا. الليلة ليلة  
جلوسه على نارها؛ "الواطي".  
وقادت كورس النساء في العربية المبتعدة:  
— "ويلك منها يا واطي.. ويلك منها يا واطي".  
تابع الناس المشهد ضاحكين لكنني تشاغلنت بعلمي، صعدت  
درجات السلم النقال بحذر لأحدّد موضع اللافتة الكهربائية على  
واجهة المحل، وقلت لعامل الإضاءة:  
— هنا؛ في أعلى نقطة. الأرضية مضيئة والاسم بالأسود؛  
"الأفندي".





الحسد طبيعة في البشر، لا يزعجني كثيرا.  
حتى الحاج حسين لم يستطع أن يخفي مشاعره. اصفرت  
أفواس وجهه وهو يحدثني، كان يخبيء داخل الكلام كلاما آخر:  
— كيف خطَّطت لشراء المحل بكل هذا الكتمان، ودون أن  
يشعر أحد من تجار الخان؟!  
— لم أخطط لشيء، كانت فرصة وانتهزتها.  
— هكذا؛ فجأة؟!  
— فجأة، وكان على أن أقبل أو أرفض في الحال.  
— ومن ذلك على الفرصة؟.. لا بد أنه رتبة؛ صاحب "حجاب"  
وسره كبير.  
لم أعطه إجابة واضحة، لكنني وعدته أن أساعده بعلاقاتي إذا  
احتاج ذلك.  
— وبماذا ستشتغل في تجارتك؟

كررت عليه أنني لم أخطط لشيء، فاقترح على أن أعرض في  
المحل أزياء رقص، ومناديل رأس مطرزة بالخرز والترتر،

وأرجيلات، و عقودا بلاستيكية، وقال:

— هي البضائع الراجعة هذه الأيام، وأنت لا خبرة لك بغيرها.  
فهمتُ المعنى، لكننى تجاهلت الإهانة. وعدته أن أنفذ نصيحته  
بالضبط، وأن أضيف إليها سجاجيد وأزياء الصلاة، وقلت:  
— يعجبني أنك بدأت تفهم منطق السوق يا حاج.  
— أنا لا أفهم إلا فى تجارة الأحجار الكريمة، الجواهر، لكننى  
سأحاول أن أتعلم منك، وأتمنى أن أعجبك أكثر يا حبيب أفندي.  
كان يتكلم بعصبية، ولم أسمع منه كلمة "ميروك".

\*\*\*

أخمن ما يدور داخله.

يلاحظ سعودى بحسد، ويغير من علاقته الجديدة التى تزيحه  
للهامش، وتجعلنى أستغنى عن خدماته. أظنه كان يأمل استمرار  
علاقته الأبوية بى تعويضاً عن حرمانه من الذرية.  
ليس من العدل أن يستغنى فى معالجة عقده النفسية، ولا من  
الفتنة أن يصرَّ على معرفة أسرار أشغالى وعلاقاتي. يجب على  
أن أعالج الأمر بهدوء، حتى أضع العلاقة فى إطار يرضيني،  
ودون أن أخسره.

كنت أفسر الأمر فى هذه الحدود، لكن نازك أضافت بعدا آخر  
حين أخبرتنى أن الحاج حسين هو الذى أعطاه الألف جنيه. كانت

زلة لسان فى جلسة عتاب.

تعجبتُ لهذا التقارب المفاجئ، وخننت أن بينهما كلاما  
يخصني. حاولت أن أستدرجها:

— كنت أظنك لا تعرفينه عن قرب.

— كل أهل السوق يعرفونني، وخصوصا هو. دائما يسأل  
عني: "كيف أحوالك يا نازك؟.. بخير يا حاج. ألا تحتاجين شيئا يا  
بنت؟.. شكرا يا حاج".

— يسأل عن أحوالك، أم عن أحوالي؟

— ما شأنى بك ليسألنى عنك؟!

— ولماذا أعطاك الألف جنيه؟!

— ذهبت أعزيه فى وفاة أرملة أبيه، فانفتح بيننا حديث الهموم.  
عرف أنني أحتاج خمسمائة جنيه. ففتح الدرج وناولنى الألف  
بربطة البنك دون أن أطلب شيئا.

لاعبتها بالكلام:

— عموما بقيت لك عنده الفان.

— لا أفهم.

— بقية الثلاثة التى دفعتها لشهادة الميلاد.

— وما علاقته بالموضوع؟!

— هو الذى دبر الأمر كله.

— وأنت؛ كم أخذت لنفسك؟

— هو أخذ الفلوس كلها، وقال إنه دفعها لشخص ما ليسهل

استخراج الشهادة المزورة.

انتبهت نازك للزاوية الأهم فلطمت صدرها:

— إذن فهو يعرف حكاية ابنتي؟

\*\*\*

فكرت؛ لماذا يتودد لها الحاج حسين؟!

قد يكون الأمر مفهوما فيما يتعلق بنازك، أما موقف الحاج حسين فلغز. بالتأكيد هناك مصالح ما، لكنني لا أستطيع أن أحدها بالضبط.

عموما لا أتعجل الفهم، لن تذهب الأمور إلى أبعد من الكلام؛

مجرد كلام.

\*\*\*

فى عالمى الجديد نساء غير نازك، وهى الأذى بالتأكد. من

تكون هى جنب موزة أو وداد قروى مثلا؟!

لم أحس أبدا أن لها أهمية فى حياتي، لكنني أذخرها لأسباب

ثانوية، أهمها ذلك الإلحاح الغريزي الذى يداهم أى رجل فلا

يستطيع له دفعا، شوقه المفاجئ لتلك الرائحة.

أستطيع أن أسيطر على نفسي بالتأكيد، لكن ذلك قد يسبب قدرا

ولو يسيرا من التوتر، يجعلنى لا أركّز فى أعمالي، أو أتصرف  
بعاطفية وأخلط بين الأمور. نازك تحطها ببساطة.  
بالتأكيد عندى أسباب أخرى، لكن ذلك قد يكون لبّ الموضوع.  
عموماً؛ لا يقلقتى الأمر، فنازك لن تذهب بعيدا عني؛ أليست  
هى التى تناديني دائما: "يا وعدي".



وداد قروى حكاية مختلفة، امرأة من عالم آخر؛ الأضواء  
والثقافة والأناقة.

تعرفت عليها بالصدفة. رأيتها أكثر من مرة على مقهى  
"البستان"، بينطلون جينز وحقيبة من الخيش. أعجب كثيرا بتماسكها  
بعد قضية الشرائط التي أطاحت بها من التلفزيون.

كنت أراها دائما فى انتظار طويل، تشرب القهوة وحدها  
وتدخن، حتى يقطع وحدتها شاب صغير. كل مرة وجه جديد،  
تتأبطه وتمضى به إلى أحد المطاعم القريبة على مرمى البصر.  
أخمن الآن أنهم كانوا صحفيين صغارا يعدونها بنشر أخبارها.

فى ذلك اليوم كانت فى كامل أناقتها كأنها على موعد مع  
الكاميرا من جديد؛ فستان أزرق، وقلادة من حجر القمر.

تقلّب فى بياض الحجر نتف من ألوان السماء، فتضفى على  
وجهها لمحة حالمة. هى مازالت تحتفظ بمسحة جمال، وتحافظ على  
تلك اللكنة الطفولية، والابتسامة الجذابة التى تربعت بها على  
الشاشة الصغيرة طويلا.



رأيتها جالسة مع زميلي القديم فايز ناصف.

\*\*\*

توثقت علاقتي مع فايز بعد لقاء الصدفة في بيت موزة. أراه على المقهى أحيانا، وزرته في المجلة عدة مرات. أعطاني في كل مرة نسخة من آخر عدد من مجلته، وأهداني ديوانه الوحيد الذي أعاد طباعته على نفقته الخاصة أكثر من مرة.

كان شاعرا واعدا أيام الدراسة، لكنه بدد نفسه وتحول إلى "أستاذ" متجول على المقاهي. تجاهله النقاد فانهمك في شرح ما يكتبه، والتعليق الشفاهي على ما يكتبه غيره.

يعمل مستشارا لحدى المجالات الفنية الخاصة. خلطة إعلانات وأخبار حفلات، مع مقالات وجدانية خفيفة لكتاب مغمورين، وأبواب ثابتة لمشاكل الحب والجنس والجريمة، وزاوية للراغبين في الزواج، وصور بحجم صفحة لنجوم ورجال أعمال وبنات جميلات في أوضاع حرجة.

يحتاجني فايز دائما لخدمات صغيرة؛ شقة مفروشة، أو هدايا من الخان لتسهيل مصالحه. لهذا السبب تكررت لقاءاتنا واتصالاتنا. أزوره في مكتبه الفخم. يستمهنني دقائق يكتب فيها مقال صاحب المجلة، مجرد خواطر عاطفية سهلة. يكتب المقال أمامي بسرعة وبصوت عال، ويسلمه على عجل وبشكل استعراضي:

— المقال الافتتاحي.

ألاحظ أنه لا يمارس أى عمل حقيقى آخر فى المجلة. ويقول إنه يتولى ترتيب صفقات الإعلانات، وأن هذا أفضل له وللمجلة. أخمن من جانبى أنه يستغل موقعه لتعزيز صموده فى الوسط الثقافي.

نجح فى فرض اسمه كمؤلف أغان فى مسلسل إذاعى مشهور، ومازال ينتظر الفرصة التالية. ويظهر اسمه ضمن فريق الإعداد فى برنامج تليفزيونى خفيف.

المفترض أنه أكثر جدية من ذلك.

يتعامل مع نفسه كأستاذ كبير، لكنه صار فى النهاية عبثياً مسلياً، يدخن البانجو فى أى مكان، ويهزل أغلب الوقت. وحين يتحول إلى الجد يعلق الأبواب وينتقد الآخرين بمرارة. ينتقد الجميع وكل شئ، حتى نفسه.

كان أستاذاً بحق، لكن بنكهة الفشل.

\*\*\*

قدمنى فايز ناصف إلى وداد قروى باعتبارى رجلاً نادراً:

— برنامج فريد لا توجد منه نسخة أخرى؛ يعرف كل شئ،

ولا يشغل نفسه بأى شئ.

سألتني:

— أهو الزهد؟

— لا أظن. ربما هو الحرص على نفسي، ربما هي الحرية.

— كلامك عميق.

أخبرها فايز أنني أبعد الناس عن الزهد وقال:

— هو حريص على الدنيا، وقادر عليها أيضا، أما ما لا يشغل

نفسه به فهو الأفكار؛ الثقافة والسياسة، وكل هذا الكلام الفارغ الذي

ضيّعنا فيه أعمارنا.

قَدَّرْتُ أن فايز يسوق الحديث في اتجاه غير مناسب، فرجعت

بها للكلام الأول:

— لست زاهدا، ولكن جدّي كان من كبار الزاهدين، وفريد في

مذهبه.

— وما مذهبه؟

— الزهد في كل حلال.

— وكيف كان يعيش؟

— زهدًا في الحلال، لكن ما أكثر الحرام.

فهمت وداد المفارقة فابتسمت بذكاء ولم تعلق، فايز هو الذي

علق:

— الدنيا كلها تحب الحرام، وأنا وأنت أول الزاهدين على هذا

الطريق.

\*\*\*

هي كانت غنية عن التعريف.

أطريت على عقدها، فتمسته بأطراف أصابعها، وقالت:  
— أتذكر أنني رأيتك هنا عدة مرات ولاحظت أنك تنظر نحوي  
كثيرا.

شرحت لها أن نجمة مثلها لا بد أن تلفت أنظار كل من في  
المكان، فقالت:

— هذه مشكلتي دائما.

وأعادتي لموضوع العقد:

— الله عليك، كلك ذوق.

حدثتها عن خواص حجر القمر؛ الإلهام والخيال والعاطفية،  
وأخبرتها إنه يتألق في المساء مع ضوء القمر. أعطتني وجهها  
وابتسامتها:

— اسمك حبيب؟

— حبيب الله الأفندي.

— الله عليك.. اسمك لطيف.

وعادت للعقد.

— هل يجلب هذا الحجر الحظ؟

— لا أعرف شيئا عن علاقته بالحظ، علاقته أكبر بالخيال

والسحر، وهناك اعتقاد بأن من يضعه في فمه وينظر إلى القمر  
يوهب القدرة على التنبؤ.

— برافو، واضح أن ثقافتك واسعة، وتهتم بأشياء كثيرة، ماذا  
تعمل بالضبط؟

— درست الفيزياء والفلك في كلية العلوم، لكنني أعمل مرشدا  
سياحيا.

— في أي شركة؟

— أنا شركة بمفردي، أعمل وحدي وأختار زبائني بنفسني.

— الله عليك يا ولدا، حرية كاملة.

وعادت للموضوع.

— وما الحجر الذي يجلب الحظ؟

أحجار كثيرة أشهرها الفيروز، لكن لكل برج حجر مميز

يجلب الحظ لمواليده.

— وتعرف عن الأبراج أيضا، الله عليك. أنا برج "العذراء".

لاحظت أنها تميل إلى المبالغة، وأنها تقطع سياق الكلام بأسئلة

فرعية ثم تعود للموضوع، ربما تعطي نفسها فرصة لترتيب

الأفكار. مهارة خاصة في إدارة الحديث تليق بمذبة سابقة.

كان لقاؤنا لطيفا. شكرت فايز ناصف وأنا أستعير لغة وداد:

— الله عليك، اليوم عرّفتني بأجمل نجمة.

نهضت وداد، شبكتى فى يدها، وانطلقت بى إلى أقرب مطعم.  
— أحتاجك لأمر مهم.

\*\*\*

تصرفت معى بكرم ملحوظ، وسألتنى:

— هل تظنه جادا؟

— من؟

— صديقك فايز، ألم يحدثك عن شئ يخصنى؟

أخبرتنى أنه عرض عليها دورا فى فيلم شبابى يتولى كتابة

أغانيه، وأنها مترددة:

— لا أعرف حجم دوري، ولا قصة الفيلم، يجب أن يكون شيئا

يليق بمكانتى.

— مشاركتك فى الفيلم مكسب كبير لهم؛ اسم رنان، وداد

قروي، يكفى ذلك.

— الله عليك، واضح أنك كنت تتابع برامجي، أى برنامج

أعجبك أكثر؟

— "وقفة مع مسئول"، كنت أترقب مواعيده.

وعادت لموضوع الفيلم:

— من حقى أن أفرض شروطى، أليس كذلك.

— بالتأكيد، لكن لا تتشددى كثيرا فالفيلم فرصة لك، رد

اعتبار، وعودة قوية للأضواء.

لم أقصد التلميح لفضيحة الأشرطة، لكن يبدو أنها فهمت الكلام  
فى هذا الاتجاه، فقالت:

— كأنك تقرأ ما يدور فى رأسي، أنت لمّا ح وصريح، تعرف  
كيف تقول دون أن تجرح. هل أنت متزوج؟.

— الحرية، ثم الحرية.

— فيلسوف يا ولد، فى صحة الحرية.

— أكتفى بنفسى، أتحمس وجودي، ولا يشغلنى شئ آخر.

— شاعر أيضا، الله عليك.

وعادت للموضوع:

— المشكلة أنه لم يقدّم لى أى تفاصيل عن الفيلم ولا عن  
المخرج ولا المنتج ولا القصة ولا الدور. هل تظن أن له قصدا  
آخر، أعنى فايز؛ هل يحبنى مثلا؟

\*\*\*

هى سكرت، وأنا شربت باحتراس. أفضل ذلك دائما.

حديث حميم ثم:

— باى .. باى.

سجلت بيانات و داد على الكمبيوتر. معلومات وملاحظات أرى  
أنها مهمة؛ أبرز العلامات، لوازم الكلام، برج الحظ، لون الفستان،  
نوع الإكسسوارات، أهم النقاط في حديثنا.  
تساعدنى المعلومات على تنظيم شغلى، وتؤهلنى لأى لقاء  
عاجل.

يسعد الناس كثيرا أن تتذكر تفاصيلهم، والنساء بالأخص.  
الأرشيف الإلكتروني يذكرنى بالمفاتيح، بنظرة سريعة أكون جاهزا  
للشغل.

كنت أحفظ مثل تلك المعلومات دائما فى نوتة صغيرة فى  
جيبى الخفى، لكنى دخلت زمن الكمبيوتر مبكرا بهدية سخية من  
موزة. كان الجهاز ضمن هدايا دعائية لإنتاج إحدى شركات أخيها  
الأصغر، وهى خصتنى بجهاز طلبته بالتليفون من الموزع المحلى.

\*\*\*

— شكرا موزة.

دائما أسعد بهداياها، ولا أعرف بالضبط لماذا تسرف فى ذلك.  
خدماتى أقل مما تعطينى.

وصلت الهدايا إلى حد سيارة مكيفة. صحيح أننى أصحبها فى



رحلاتها الطويلة ومشاورها المفاجئة لكن ذلك يتم بشكل متقطع، وأحيانا أهرب؛ لا أرد على التليفون، أو أعتذر، وترد هي ببساطة:

— جهز سيارة بالإيجار، مكيفة، وفي الموعد تماما.

المهم أن السيارة ملكى فى النهاية.

لا أفهم سر وضعى المميز عندها، وهى كانت تبرر ذلك بكلام

ليس مفهوما تماما:

— لست أحسن من حولي، ولا الأسوأ، ولا أكثرهم بريقا، لكنك

أنت "النمط"، الرمز الكبير. أنت الشارع الواسع، وهم تقريعات صغيرة؛ حوارى.

ربما يخصها أمرى لأسباب دراسية، أو بحثية، أو شعرية، أو

جنسية. ها؛ أنا جاهز للشغل .

\*\*\*

أضع الكمبيوتر على مكتبى فى الصالة.

شقتى الصغيرة مختلفة الآن تماما. مازلت أحتفظ بها. لماذا

أفرط فيها وإيجارها مجرد جنيهات قليلة!؟.. فرطت فى دكان أبى

زمان وندمت، كان مبلغ "خلو الرجل" الذى تقاضيته هزليا، الان

الخلو بالآلاف وليس بالمئات.

ليست المسألة مجرد حسابات مالية فقط، فالشقة ليست صغيرة؛

تسعون مترا تقريبا. وموقعها مميز، فهى قريبة من وسط البلد،

"درب الصايم" على مدخل "باب الشعرية". أصل إلى الخان في عشر دقائق، وإلى وسط البلد في ثلث الساعة. ثم أن للشقة قيمة رمزية أخرى، فهي نقطة قياس مهمة لطول مشوارى وإنجازاتي؛ من هنا بدأت.

هل كانت هذه العبارة عنوان كتاب يحتفظ به أبي؛ "من هنا بدأت.. أو أبداً.. أو نبدأ.."، لا أتذكر جيداً.

حولت الشقة من الداخل إلى جناح فندقي، حصن أرستقراطي في حي شعبي. الأبواب والأرضيات من خشب الأرو ماعدا الحمام، والردهة الداخلية التي أستخدمها كمطبخ وغرفة طعام، الجدران بلون سن الفيل، وشباك صالة الاستقبال المستطيل من "الألوميتال" البني، وعليه ستائر من الكتان الأسباني.

في صدر الصالة أنترية أمريكى الطراز على شكل زاوية حرف "إل"، يغطى جانباً من جدارين. يصلح للجلوس المريح جداً، وللرقاد في كل الأوضاع. مكسوٌ بالكامل بقطيفة انجليزية نبيذية اللون، وفي حضنه ثلاث طاولات فرنسية من الزجاج والمعدن المذهَّب. وفوق الطاولات منافض سجاثر من الكريستال اليوجوسلافي.

أمام الجدار على الضلع الثالث للصالة مكتب من خشب الجوز الباكستاني، الذى يتميز لونه عن التركي بخيوط سوداء متباعدة

على الأرضية العسلية، معه كرسي أنيق مكسو بجلد بنى عالى الظهر، يتحرك على عجلات، وله زرّ يعلو وينخفض بالجالس حسب الوضع الذى يناسبه.

فى مدخل الصالة مكتبة صغيرة من خشب الجوز أيضا. يتوسط المكتبة تليفزيون ياباني. وخلف واجهتها الزجاجية المضيئة مشغولات من العاج الهندى والفضة التركية، والأبنوس الإفريقي، و"اللاكِر" الصينى بكل ألوانه. أخفيت كئبى خلف الواجهة السفلية الخشبية، علوم ومعارف عامة وطريقة. لم أُرجم صالة الاستقبال بأثاث آخر.

على الحوائط ساعة "كوكو" تشيكية، وثلاث تابلوهات قمائشة من فن "الباتيِك" الأندونيسي، بنقوش فراشات زاهية الألوان.

نقلت مكان الطعام إلى الردهة الداخلية، مساحتها نحو عشرين مترا مربعا. اكتفيت بطاولة طعام صغيرة، خشبية وعلى سطحها مربعات من السيراميك الإيطالي. بقية المساحة للمطبخ، خزانات من خشب الزان الفنلندى وحوض معدنى انجليزى، مع بوتاجاز وغسالة ملابس أوتوماتيكية من صنع ألمانيا.

الحمام يتسع بالكاد للبانىو وحوض الوجه، وتبرق حوائطه بالمرايا والسيراميك.

تفاديت الزوايا الحادة فى غرفة النوم، احتفظت لها بطابع

دائري، سرير مستدير، ودولابان صغيران فى الزاويتين الداخليتين،  
وبينهما طاولة نصف دائرية تصلح لأغراض مختلفة. على الطاولة  
راديو أبى القديم؛ الشئ الوحيد الذى احتفظت به، وفوقها مرآة  
بيضاوية من الزجاج البلجيكى.

وضعت مرآة كبيرة قبالة الشباك الصغير. يحتضن دائرتها  
إكليل من زخارف الزهور. أتمهل أحيانا أمام الشباك المستدير  
لأتأمل نفسى فى المرآة وسط الهالة اللامعة:  
— حبيب بك الأفندى.

\*\*\*

— حبيب بك الأفندى؛ عالم طبيعة وفلك ورجل أعمال.  
هكذا قدمنى الغرباوى للمستول الكبير. تشاغل الرجل بأوراق  
أمامه، وسألنى:

— وما علاقة الطبيعة والفلك بصناعة أكياس الزبالة؟!  
— حماية البيئة.

— برافو؛ زاوية بعيدة، لكنها جديدة ومهمة. هكذا يكون العلم  
فى خدمة المجتمع. ما طلبك؟  
— المعدات والآلات.  
— من أين ستستوردها؟  
— لن أستورد.

- ولماذا جئت لي؟!
- لأشترئها.
- يمكنني أن أساعدك في تسهيل إجراءات، أو في تخفيض رسوم. لكنني لست سمساراً، ولا خبيرة لي في شراء الآلات.
- هي موجودة في مخازن الجمارك.
- اشرح لي.
- اشتراها سعيد المهدي قبل أن يسجنوه ويفرضوا "الحراسة" على ممتلكاته، وصدر حكم ببيعها قبل أسبوع.
- وكيف عرفت ذلك؟!
- كنت أراقب الموقف لدى كل الأطراف، ولما حانت الفرصة لجأتُ لك.
- بكم اشتراها المهدي؟
- نصف "أرنب" حسب ما عرفت.
- بالتأكيد أكثر، هناك تلاعب في الفواتير. وأنت بكم تقدرها؟
- أشترئها بمائة ألف.
- وكم تدفع فوقها؟
- كما تحدّد لي.
- اسمع؛ ستدفع مائتي ألف جنيه للشراء، وفوقها مائة ألف لي. أنت الرباح؛ سعر أقل، وشراء فوري بدون مجهود، وبدون

جمارك تقريبا .

ودعنى جالسا دون أن ينظر إلى وجهي :

— ادفع الآن خمسين ألفا، وراجعنى بعد شهر حتى أكون قد

رتبت كل شئ، مع السلامة.

\*\*\*

كانت هذه الصفقة الغربية لحساب المهدي نفسه، صاحب

البضاعة أصلا .

الماكينات جديدة وقيمتها أكثر من "أرنب" ، وأثبتتها الفواتير

بنصف مليون كأدوات مستعملة، أما جماركها فيمكن أن تتجاوز

"الأرنب" أيضا .

كان الاتفاق على أن يشتريها الغرباوى لحساب المهدي، فأى

ثمن لها لن يصل إلى نصف قيمة الرسوم الجمركية التي كان يمكن

أن يدفعها .

تفادى الغرباوى أن يظهر في الصورة، فقضايا المهدي تتفجر

على صفحات الجرائد، وعلاقته به معروفة، وظهور اسمه في

الصفحة يقرّبه من دائرة الخطر .

صدرني الغرباوى للموقف، ووعدني :

— اللعبة كلها نصف "أرنب"، وما نوفره منه نقتسمه بالنصف،

أنا وأنت .

فى البدائة تعجبت:

— لماذا يعيد المهدي شراء الآلات وهو الآن فى السجن،  
ومصنعه وعقاراته تحت الحراسة؟!  
— أقصاها سنة وتنتهى لعبة الحراسة، ماذا يمكنهم أن يفعلوا  
به؟

\*\*\*

كان الغرباوى سعيدا بالنتيجة، دعانى إلى وليمة مشويات فى  
مطعم عائم، وقال:  
— وفرنا مائتى ألف جنيه، لك مائة ألف، ولى مثلها؛ قسمة  
عدل.

لم أعلق، ولم أحاول أن أسأله عن الرقم النهائى فى صففته مع  
المهدي.

عموما كانت اللقمة كلها من نصيبي، فقبل أن يحين الموعد  
كان الغرباوى فى السجن وأملاكه تحت الحراسة. أتممت الصفقة  
بمفردى وبعثت المعدات. لم أكن أعرف بقية حلقات الوصل فى  
صفقة المهدي، فبعث لأول مشتر.

كسبت أربعمائة ألف بضربة واحدة؛ بووم.  
وكسبت أيضا معرفة المسئول الكبير؛ بوم.. بووم.. بووم.







لم يفوّت الحاج حسين الفرصة ليستجوبني حول الغرباوي.  
استقبلني معطّراً ومتأنقاً ومبتسماً كعادته في الفترة الأخيرة.  
كان يعيش تلك الأيام حالة رومانسية لا تخفى عن عيون أهل  
الخان، يسميها البعض فيما بينهم "فيلم عودة الشباب"، يتابعون  
اللقطات بشغف، ويحاولون توقع النهايات.  
سمعت، فذهبت إليه أستطلع الأمر عن قرب، لكنه بادرني  
بالحديث حول الغرباوي:

- إياك أن تكون تورطت معه في أي شيء.
- ما بيننا مجرد صداقة نشأت في لوكاندة "الأنوار".
- صداقة بين من ومن؟!.. أنا أعرفك منذ زمن، وسمعت عن  
الغرباوي ما يكفي. أعرف أيضاً أنك اشتريت قطعة أرض عن  
طريقه.
- حدث ذلك مرة واحدة، وبعثها بسرعة، خفت من المخاطر  
فهربتُ.
- وماذا بعد ذلك!؟

— لا شيء.

— والمحل؟؟

فضلت أن أقول له إن المحل كان الخدمة الوحيدة التي قدمها لى الغرباوي، قصدت ذلك لأنهي الكلام فى الموضوع، وأكدت له: — كان هذا آخر ما بينى وبين الغرباوي، وبعد ذلك لا شيء، صدقنى لا شيء.

انتهينا من "سين" و"جيم"، وبدأ الحاج حسين النصائح:

— رغم أنني لا أرتاح لأحوالك ولا لكلامك أحيانا إلا أن العشرة الطويلة بيننا توجب على أن أنصحك.

أول كلامى أن رأسمال التاجر "سُمعته"، والسوق ملئ بكل الاحتمالات، الحرام موجود، والحلال موجود. حتى داخل الإنسان كل الاحتمالات موجودة، فحين يأتيك الزبون يكون داخلك صوتان صوت يقول له: "عشّ واسرق"، وصوت آخر يقول: "بعّ بالحق". الصوتان داخلنا، وفينا كل الاحتمالات، لكن الإنسان فى النهاية هو ما يختاره من داخل نفسه. وعلينا أن نتذكر دائما أن التجارة سُمعة. وكررها بحسم:

— سُمعة.

اصطدته بالكلمة التي أفلتت من لسانه:

— لو اهتممنا بمسألة "السُمعة" وما يقوله الناس عنا لما ارتحنا؛

لا أنا، ولا أنت.

— ماذا تريد أن تقول؟!

— لست أنا من يقول، وإنما كل الناس في الخان.

— أوضِّحْ كلامك.

— أقصد حكايتك مع نازك يا حاج.

\*\*\*

نَفَرَ الحاج حسين منى حين ذكرت اسم نازك، كأننى فاجأته  
بكشف السر، أو كأنه لا يدرك أن الحكاية معروفة. صحيح أن  
أحدا من أهل الخان لا يجروا على مواجهته بالحديث، لكن العيون  
تتطق، وغمزات الكلام لا تخفى معانيها.

تشابكت أقواس وجهه وهو يسألنى بحدّة:

— أهذا كلامك؟

— بل كلام الناس، ومن الواجب أن أبلغك بما يقال.

— لا يهمنى كلام الناس، بل يهمنى أن أعرف ماذا تريد أنت،

من نازك.

— هى التى تحتاجنى دائما.

— بعد اليوم لن تحتاجك فى شىء، فابعد عن طريقها.

كان يُنهى الكلام ويطردهنى تقريبا. نهضت، فاستوقفنى:

— تذكر دائما عندما تكلمنى أننى عمك الحاج حسين جوهر،

وأنتك "الأفندي".

\*\*\*

أتذكّر أيضا أنه أول من أطلق على اللقب.

\*\*\*

بلغتُ الإهانة وانصرفت.

اعترف أنني سعدت بإزعاجه لأجبره على التوقف عن مواظبه. تضجرتى تلك المزايدات خاصة عندما أكون متأكدا أنها تخفى دوافع أخرى.

لكننى اعترف أيضا أنني كنت قلقا من علاقته بنازك، ربما كنت مشفقا عليه من صبوات مابعد الستين مع امرأة تقترب من الأربعين؛ سن الفوران الأخير والأعنف. وهى ليست أى امرأة؛ إنها نازك، بقشعريرة الأفعى التى تسكن جسدها، وبرنامجها الخاص الذى تربك به أى إنسان؛ تقترب فجأة وتبتعد فجأة حسب مصالحها. غيرى جرّب هذا البرنامج مرة، أما معى فالعرض مستمر. تقترب حتى تكاد تزهق أنفاسي، ثم تتقلب فجأة، وتتفادى مجرد الكلام. أحمن دائما أن خلف إقبالها وانصرافها دوافع عملية، لكنها تغطى ذلك بتقلبات مزاجية:

\* أريد أن أخلو بنفسي، أشياء كثيرة تتقلب داخلي.

\* مشاكلى كثيرة، ولا أريد أن أثقل على أحد.

حين تقبل تعطى كل شيء حتى يخيل لى أن أنفاسها معلقة بي،  
تتنفس على إيقاع كلامى ونظراتي، وحين تدير ظهرها تبدو قاسية  
جدا ومتكبّرة. ما يحميني منها هو أنني أعرف "برنامج" دماغها،  
قرأت "الكتالوج" جيدا، وأحفظ هذه الصفحة عن ظهر قلب. أتعامل  
مع حالاتها بلا مبالاة.  
عموما على أن أعترف أنها رغم انحطاطها امرأة بنكهة  
خاصة، تختلف عن موزة ووداد، وعن أخريات عرفتهن؛ امرأة  
بنكهة المطر.



اتّصلَ بى فايز ناصف وأخبرنى أن وداد قروى تسأل عنى  
بالحاح:

— نسيت أن تعطيك رقم هاتفها، اكتب..

راجعت معلوماتى لأجهز نفسى للمكالمة.

يسعد الناس كثيرا أن تتذكر تفاصيلهم، والنساء بالأخص؛  
جنون. الأرشيف الإلكتروني يذكرنى بالمفاتيح؛ بنظرة سريعة أكون  
جاهزا للشغل.

راجعت معلوماتى على الكمبيوتر، وأعددت بعض عبارات  
التذكر الحميم:

\* الله عليك يا وداد هانم؛ تذكرتني فى الوقت المناسب. طول  
الوقت وأنا أنتظر أخبار الفيلم.

\* أبحث لك عن عقد من الفيروز الأصلي يناسب فستانك  
الأزرق، عقد طويل يغطى المساحة المكشوفة من الصدر.

\*\*\*

طلبت وداد أن أذهب إليها بسرعة:



— أريد أن أبيع ذهباً، وأعتقد أنك ستفدني في ذلك، اكتب  
العنوان..

كانت حميمة جداً في استقبالي كأنها تعرفني من سنين، قبلات  
وحضن طويل لامست فيه حلماتها عظام ضلوعي. قالت إنها فرحة  
بى جداً، وإن ظهورى فى حياتها هو شارة حظ سعيد:

— فايـز أبلغنى أن المنتج والمخرج يريدان مقابلتى بسرعة،  
واضح أن حكاية الفيلم جد.

وسألتني:

— ألم يخبرك فايـز؟

— أبدا.

— ستكون معنا. قلت لفايز إنك صديقى وخاتم حظي، وإننى لن  
أتحرك خطوة واحدة بدونك. أريدك جنبى لتساعدنى برأيك، هل  
يضايـقك ذلك؟

— بل يُسعدنى جداً.

— ولماذا لم يخبرك فايـز؟!.. هل تظن أنه يغار منك؟.. ربما  
لا يكون الأمر حبا حقيقيا وإنما يبحث فى عن ملهمة لشعره.

وسألتني:

— هل قرأت ديوانه؟

شرحت لها أننى لا أهتم بقراءة الشعر عموماً، ولا أعتبره

معرفة حقيقية. قلت:

— ليست فيه معلومات مباشرة مفيدة.

— لكنه مشاعر وعواطف.

— أغلبه اجترار مشاعر؛ مجرد تذكّر، وأنا يهمنى أن أعيش

الحياة لا أن أتذكرها.

— مدهش، أفكارك أعمق مما ظننت، الله عليك يا ولد.

وعادت لموضوع الفيلم:

— هل تظن أنها خطوة موفقة؟

— لن تخسرى شيئاً.

— لكننى سأنفق الكثير، ملابس وماكياج وإكسسوارات، ولا

أتوقع أن يعطونى أجراً مجزياً، الجميع يظنوننى غنية.

طلبت منى فى تلك الليلة أن أبيع بعض قطعها الذهبية لتغطى

تكاليف الفترة المقبلة. وأن أشتري لها من الخان عقداً من حجر

أخضر اللون، ليناسب الفستان الذى تتوى شراءه:

— بأقصى سرعة حتى أستطيع أن أجهز نفسى، لقاؤنا مع

المنتج آخر الأسبوع.

وحفرتنى:

— عمولتك محفوظة، أعرف أن هذا عمالك، والشغل شغل.

لم يتم اللقاء إلا بعد شهر.

\*\*\*

صحبت وداد قروى فى زيارة المنتج، كانت مزهوه بفستانها الأخضر الجديد وعقد الملكايت الذى اشترته لها. تقبلت اختيارى للعقد بامتنان:

— أحب الأخضر، وأتفاعل به.

لكنها أبدت ضيقها لتأجيل الموعد:

— هذا التأجيل ضد الفيلم. كان عليهم أن يستفيدوا بحماسى للعمل قبل أن يبرد اندفاعى وأدير ظهري لهم. كنت أنسى الموضوع تماما لولا إلحاح فايز.

تم اللقاء فى بيت المنتج. صالة مؤنثة على طراز عربى؛ أرائك قصيرة تلامس الأرض، وطاولات مزخرفة بالأرابيسك عليها أصناف من الشراب والطعام والكيف تناسب كل مزاج. كان فايز جالسا على الشيشة وعلى يمينه المنتج. وسّع لوداد وأجلسها بينهما، وقدم لها المخرج والمؤلف والسيناريست وبقية الفريق.

قدمنى للجميع باعتبارى رجل أعمال، ثم أشار إلى وداد:

— ..وطبعا الهانم غنيّة عن التعريف.

تألقت وداد فى بداية اللقاء. قادت الحوار مع المنتج بمهارات

مذيعة قديرة:

\* خورشيد باشا؛ لم أكن أتصور أنني سألتقى برجل مثلك في يوم من الأيام.

\* تفكر بطريقة مبهرة، كأنك تعرف كل شيء.

\* اتركنى دقيقة حتى أستوعب هذا الكلام، أفكارك مبهرة جدا، عالية جدا.

\* خسارة العمر الذى انقضى قبل أن أعرفك.

واضح أنها كانت تراهن عليه، كاد الكلام يصل إلى درجة الغزل الفاضح.

حاولت أن تتقادی طرح موضوع الفيلم، تركت المبادرة في يد خورشيد. انتظرت طويلا، لكنها اضطرت لسؤاله فى النهاية:

— ما موضوع الفيلم؟

تفجّر الكلام عن الفيلم من كل الاتجاهات، وتحولت الجلسة إلى ما يشبه فسحة بين الحصص فى مدرسة؛ أخلط أحاديث متشابكة تتجمع حول نكتة:

— اكتب هذا "الإفيه": المنتج أراد أن يوفر تكاليف الألوان

فعمل الفيلم بالأبيض فقط.

— فيلمك بالأسود.

— فيلمك بلا لون.

يكتب المؤلف "الإفيّهات" ويقول له المنتج:

— ركبها في القصة بمعرفتك.

واضح أن الفيلم بلا عنوان حتى الآن، والمؤلف ينتظر حصيلة النكات ليبدأ كتابة المشاهد، وتصميم القصة، وفايز يقترح.

— سأكتب أغنية مرحة تتضمن هذا المعنى.

سألت وداد:

— ما هو دورى في الفيلم بالضبط؟

— لقطه من تليفزيون الأبيض والأسود أيام الستينات، مذيعه تقرأ خبر مصرع "سفاح الحریم"، والسفاح يقف خلفها في الاستوديو.

استحسن خورشيد اقتراح فايز، وقال للمؤلف:

— لقطه حلوة ولها مغزى سياسي؛ دبر لها مكانا في القصة.

وواعد وداد:

— سنضع اسمك في تترات الفيلم: "ضيفه الشرف وداد قروي".

لم تنطق وداد، لكن بدا من إيماءات يديها وشففتها أنها غير راضية. تولى فايز الشرح:

— هذا مجرد تقديم؛ إعلان عن ظهورك على الشاشة الكبيرة،

وفي الفيلم القادم لنا كلام آخر.

حدد خورشيد طريق الكلام:

— لو وافق حبيب باشا على أن يشاركنى فى الإنتاج، أعطيها

دور البطولة في فيلمي القادم، وأبدأ التصوير من باكر، ويمكن أن يكون الفيلم عن قصة حياتها مثلاً.. هاه.. هاه..

\*\*\*

— هاه.. هاه.. هاه.. هاه..

\*\*\*

انصرفتُ مع وداد مبكراً، هي أصرت على ذلك. عاملتني في الأسانسير بشكل خاص جداً، حميم. وسألتني:

— كيف تفهم ما حدث؟

— واضح أن في رأس المنتج فكرة غير التي شرحها فايز.

— أنت فهمت الموقف يا ولد فلا تكذب، خورشيد لم يكن يفكر في أي شيء، بل بدا أحياناً كأنه يسخر مني. فايز استخدمني كقطعة ديكور، فعل ذلك معي عدة مرات.

وذكرتني بنفسها:

— أنا النجمة وداد قروي، ظهوري مع أي شخص يشرفه ويسهل أعماله، وهو مجرد صحفي مغمور. من يعرف فايز ناصف؟!!

كانت إضاءة المدخل خافتة جداً لدرجة طمست اللون الأخضر في فستان وعقد وداد، وحوّلت المشهد إلى لقطه بالأبيض والأسود في فيلم قديم.

كنت أنبض في الخفاء، وأتأهب لأي تطورات مفاجئة.

\*\*\*

أغوص في نفسي، وأمارس تمريني السري، نبضى الخفي.  
أمارسه بطرق داخلية محكمة لا يمكن لأحد أن يلاحظها. ليست  
هناك حركة ظاهرة. فقط؛ أقبض العضلة، وأصغى للنبض. لا  
يمنعنى الإصغاء لنفسى من سماع الآخرين. أسمع، وأنبض بقوة  
في مواجهة الكون.

التقيتُ بفايز عند موزة في آخر الأسبوع. كان جميع من سبقوني مندمجين في نقاشٍ سياسى حاد. تابعت اشتباكات الكلام دون أن أهتم بتكوين وجهة نظر.

سحبني فايز فور وصوله إلى الشرفة، وقال:

— دعهم يواصلون هذا الجدل الممل، وتعال نتكلم فيما يخصنا.

كان ساخطا على وداد:

— هل كانت تظن أن خورشيد سيعطيها بطولة الفيلم وهي في

عمر أمهاتنا، ولا خبرة لها بالتمثيل!؟

وكان ساخطا أيضا على كل فريق الفيلم:

— لا توجد قصة حتى الآن؛ مشهد من هنا ومشهد من هناك،

نكتة من الشرق ونكتة من الغرب. هكذا تتم صناعة أغلب أفلام

اليوم، لذا تجدها مشاهد متلاصقة دون مبررٍ درامى، مجرد بقع

سينمائية.

وتأمل الأمر ساخرا:

— ربما كنا نخترع اتجاهها جديدا هو "التبقيعية السينمائية"، أو



ربما كانت هذه الأفلام تشبه واقعا؛ لقطات مفككة بلا مغزى ولا سياق ولا منطق.

وبرر لي موقفه:

— أنا مسئول فقط عن الأغاني التي أكتبها.

لخصت إدراكي للمسألة:

— فهمتُ؛ أنت "البقعة الغنائية".

\*\*\*

سألني فايز عما إذا كنت انتبهت إلى عرض خورشيد أن

أشاركه في الإنتاج، وقال:

— ربما بدا كأنه يمزح، لكنه كان يقصد كل كلمة قالها؛ هذه

طريقته.

— انتبهت، وأفكر.

— منذ البداية أنس موضوع "مذكرات وداد" فهذا هو المزحة،

أما بقية الكلام فهو جد؛ فكر.

— لكنني لا أملك معلومات كافية، ولا خبرة لي بهذا المجال.

— المسألة بسيطة. بحساب الفلوس؛ الأرنب يصطاد أرنا على

الأقل. بحساب الفن؛ المسألة بأيدينا. سأكون إلى جوارك، أكتب لك

قصص الأفلام، والسيناريوهات أيضا.

لم يكن كلامه مفيدا، مجرد خلطة مرتبكة من حسابات الربح

وآمال النهوض بدور الفن. قال إنا سندسّ داخل الكلام مضامين  
جادة. لم أفهم قصده جيدا. كان يشرح الموضوع وكأنه يخطط  
لمؤامرة وهمية، ولا يعرف حساباتها.

\*\*\*

ألاحظ أن فايز يغطى بعبثيته المفتعلة إحساسا شديدا بالمرارة.  
أضجراً أحيانا من الكآبة المخفية في باطن تعليقاته الساخرة، وأنفر  
من حساباته المتناقضة للأمور. أظن أنه لا يعرف ماذا يريد  
بالضبط. شخصٌ مُربِك.

أَتَعَجَّبُ أحيانا من ازدواجية مشاعره؛ يعامل الناس بتودد  
ولطف، لكنه يحدثني بامتعاض عن الجميع وعن كل شيء؛ خور شديد  
ووداد والمجلة. حتى موزة التي يسميها في الجلسات "أميرة  
المعاني" يدهسها بانتقاداته من خلف ظهرها، ويهمس في أذني:

— موزة ليست شاعرة ذات قيمة، لكنها جزء من ظاهرة  
كبيرة أسميها "موزة وأخواتها". كل من يستطيع أن يدفع تكاليف  
الطبع يصدر كتابا، ويتحول إلى مؤلف مشهور. دور النشر لا  
تدقق، والنقاد نائمون على المقاهي.

امسك قلما واكتب ما تشاء، وهات خمسمائة جنيه. أو لا تكتب  
وهات ألفا، وسأدبر لك أمر من يكتب باسمك. بألف أو بألفين تصبح  
مشهورا؛ مفكرا أو روائيا أو شاعرا. تنضم إلى فرقة "موزة

وأخواتها"، أهم فرقة في حياتنا الثقافية؛ ادفع وافعل كل ما تشاء.

وضرب لى مثلا بنفسى:

— بفلوسك تستطيع أن تكون شاعرا أهم منى، أو صانع فكر

سينمائى أشهر من يوسف شاهين.

هربت من العودة لحديث السينما، ودعوته للانضمام إلى موزة  
والمجموعة. كانت اشتباكات السياسة قد توقفت، وبدأت مناقشات  
أخرى فى الفن والأدب.

\*\*\*

لاحظ فايز أن حديث الشرفة بيننا انتهى بنفورى منه، فظل

يتربق الفرصة ليصحح الموقف، وبالغ فى التودد.

\*\*\*

ذكرنى فايز فى تلك الليلة بحديث قديم بيننا، وقال لموزة

وأخواتها إن جدّى كان فيلسوفا كبيرا.

كان الحديث أساسا عما يسميه فايز "الخروج عن المؤلف" فى

اللغة والخيال والمعانى الشعرية. لم أفهم قصده من الزّج باسم جدّى

حمروش فى الموضوع، وهو شرح:

— كان جدّه رجلا غريبا، حرّم الحلال على نفسه خاصة فى

النساء. هو بمعنى من المعانى أنكر القانون والأعراف والأخلاق،

تعثر فى المنطق السائد وكفر به. فارق المؤلف، وابتدع حياته

ابتداعا، وهذا هو الفن.

وأضاف من عنده:

— فى النهاية صار جده وليا.

سألتنى موزة عما إذا كان جدّى وليا معروفا وصاحب ضريح،  
فقلت لها إنه كان متشردا مخبولا، ولا نعرف له قبرا، وقد يكون فى  
النهاية مجرد وهم فى رأس عمّى.

— ما أجملها من حياة، حتى وإن كنا مجرد أوهام.

قال فايز:

— هذه هى الحقيقة، كلنا أوهام.

وعاد بى للموضوع الذى يشغله:

— ألا تصلح حياة جدك فيلما؟

سألته موزة:

— من أول الليل وأنتما تتهامسان عن فيلم؛ ما الحكاية؟!

— هناك فيلم جديد سأكتب أغانيه، وهناك حديث عن فيلم آخر

يشارك حبيب باشا فى إنتاجه، ويمكنك أن تشاركى أيضا.

— وماذا عن الفيلم الأكبر يا أستاذي؟؟.. لم نسمع رأيك فيه؛

تركنا نتناقش وهربت مع حبيب إلى الشرفة.

— أى فيلم؟

— الفيلم الأخطر الذى يهددنا جميعا؛ العراق والكويت. صدام

لن يخرج، وأمريكا ستسحقه بجيوثنا؛ كارثة.  
كانت نقلة غريبة في مسار الكلام، وقف لها فايز وهدد  
بالانسحاب:

— انسى هذا الموضوع تماما حتى لا تتلفى السهرة بالخلافات.  
كلامنا لن يقدم ولن يؤخر، هذه سيناريوهات كونية مكتوبة منذ  
زمن، وكل واحد يؤدي دوره.  
وأعاد الرجاء باسم الجميع:

— دعينا هنا في "بقعتنا الشعرية"، نسبح في الشراب، ونتأمل  
سماوات البانجو ونحن نصغى لقصائدك الجديدة يا "أميرة المعاني".  
لا أقرب المخدرات أبدا، وأكتفى بكأس واحد دائما.  
تركتمهم يتجادلون. شربت كأسى على مهل، واعتصمت  
بنبضي.

أعتصم بنبضي في مواجهة العالم، وأراقب ما يجرى حولي.  
أحرص دائما على ألا أتورط فيما لا يهمني، فالحياة تبدو لي  
مربكة، والوجوه متغيرة، حتى الدول الكبرى تنهار وتتفسخ، والدول  
الصغرى تزحف خارج حدودها. لا تستطيع أن تأمن لعالم يتغير  
بمثل هذه السرعة؛ الأسعار والأوضاع والأفكار والمواقف  
والخرائط، حتى الناس يتقلبون أمامك بأكثر من وجه. فايز مثلا؛  
هل أستطيع أن أحمّن بسهولة ما يحب وما يكره؟.. صعب.

وجوه الحياة والناس متغيرة، تماما مثل وجه الجنية الذي تقلب  
لجدّي حمروش بألف شكل، وانتهى بهالة فارغة ضاع جدّي وهو  
يطارد الوجه الوهمي في دواماتها الحلزونية.  
أعرف أن تلك الحكاية من تحاريف عمّي المخبول، لكنها  
مجرد مثل؛ إيضاح.

\*\*\*

طلبت موزة بإلحاح أن تصحبني في زيارة لعمّي. قالت إنها  
تريد أن تراه بعينيها، وأن تسمع بأذنيها ما يحكيه عن جدي.  
ماطلتها شهورا، وهي زادت إلحاحا:  
— أفكر في كتابة ملحمة شعرية عن جدك أسميها "الوجه  
المستحيل"، فلا تحرمني من هذه الفرصة.  
ذهبنا معا.

لا تزال غرفته صامدة في مكانها، وكل شيء يتغير حولها. علّت  
المباني كثيرا وسطعت الأضواء وازدحمت الشوارع، والغرفة كما  
كانت دائما. حولها الآن ميدانٌ برصيف وأشجار وزحام سيارات  
وناس، وهي في صرة الميدان، غارقة في عتمتها وصمتها وسط  
دوامات الأصوات والأضواء.

فتحت الباب فتقلّب وميض كشافات السيارات على وجه  
عمّي وهو في جاسته المعهودة. نفضت الغبار عن شعره، ونقرت

جمجمته، وأسمعته صرير الكرة الأرضية:

— السلام عليكم.

تتابع، وومضت عيناه في العتمة. وميضٌ غريب، مثل نجم  
خبا وتلاشى منذ عصور بعيدة، لكن شعاعه يصل الآن؛ وميض  
غامض حزين.

عرف صوتي، وسألني:

— أشم رائحة غريبة، فمن معك؟

— امرأة اسمها موزة.

— جدك حمروش خدعته الأسماء، مديحة وصبيحة وسميحة.

لم ير الوجه الحقيقي، وتاه في تقلبات الوجوه والأسماء.

لم يكن لدى عمي جديد يرويه عن جدنا حمروش لكنه كان  
يعيد تأمل الحكاية. يقول، ويندهش هو نفسه من مفاجآت الكلام.  
كنت أتابع تعبيرات وجهه في ومضات أضواء متقطعة تصل إلينا  
عبر الميدان.

\*\*\*

قال عمي:

— جاع جدنا حمروش ونام في العراء. أكل من فضلات  
الناس، وشرب من حُفَر الطريق. كان يتتبع النساء في الأسواق  
باحثًا فيهن عن وجه الجنية، أو يتوه في الشوارع باحثًا عن بيوت

كانت قد فتحت أبوابها له يوماً، لكنه لا يجد لها أثراً. لم يعرف أنها  
كانت بيوتا مسحورة. يركع ويبكى على الأعتاب:  
— أين أنت يا هي؟

أحياناً يطادر امرأة في ظلام الأزقة، يحجل خلفها عارياً  
متسانداً على جدران البيوت، ويتبعها من عتمة إلى عتمة.  
أحياناً كانت نساء يضعن أنفسهن في طريقه، يلتمسن البركة.  
وهو يفر من وجهه إلى وجهه، وكأن الجنية حرّمته على نفسها وعلى  
غيرها من بنات الإنس. يهرول في شوارع الليل الخالية تائها في  
تقلبات البصر، ومتوسلاً للهالة الفارغة المعلقة فوق رأسه:  
— نظرة.

يغلبه الحال فيبكي من الشوق، يبكي ويمسح دموعه بشال  
العمامة.

في الشال ورود بعيون، وجدنا يبكي ويسكب دموعه في عيون  
الشال، وكل عين تضحك وتشرب دموعه، تشرب وتضحك عليه.  
في آخر الليل يصعد سور المدينة فوق باب الفتوح، يطرق  
أبواب الليل من كل الجهات، ويتزئم بتساويح شوقه في انتظار  
الصبح. كل صباح جديد يطلع بوجه جديد، لكنه يعيد الدور. وآخر  
كل ليل يبدأ جدنا حمروش بتساويحه من أول.  
وياما حكى الناس عن "وقفة الفجر" والتساويح.



\*\*\*

فككت مسامير عقلى بإشارات رمزية من يدي، وقلت لموزة :  
— جنون.

— بل خيال، والخيال واقعٌ أيضاً، هو قوة تُغيّر الواقع أحيانا.  
أتقهُمُ هذه الطريقة في التفكير، لكننى لا أفضل الخلط بين  
الأمور. الواقع واقع، والخيال خيال. وأنا يهمنى أن أعيش الحياة،  
لا أن أختيلها. كنت أكرّر لها هذا الكلام دائماً.  
سألتنى موزة:

— ألا تؤمن بالروح؟

— لماذا تحدثينى عن الروح؟.. حدثينى عن تلك الفرصة  
النادرة؛ الجسد.

عاتبناَ فايز لأننا تجاهلناه فى زيارة العم، وأقسم أنه سيحوّل  
حكايته إلى قصة لفيلم، سواء شاركتُ خورشيد فى الإنتاج أو لم  
أشارك.

يلحّ كثيراً فى إقناعى بمشاركة خورشيد:

— جرب مرة، ارم الفلوس وترقب. سيعود الأرنب إليك  
أرنبين، والأرنبان أربعة. سأتولى بنفسى الدعاية للفيلم.  
وعرض مغريات أخري:

— يمكننا أن نضع اسمك فى التترات كمؤلف لقصة الفيلم،

وأحتفظ لنفسى بالسيناريو، سيعوضنى الأجر الكبير عن خسارتى المعنوية. هناك فرصٌ أخرى فى المستقبل؛ يمكنك أن تتفرد بالإنتاج، أو تفكر بالإخراج. سأولى الدعاية فى كل المراحل، وسترى اسمك فى عناوين الصحف والمجلات: "حبيب الله الأفندي.. فِكْرٌ سينمائى جديد".

أعرف أن الأمر يعنى الكثير بالنسبة له، لكننى أفكر فيما يخصني. عموما انشغلتُ بالموضوع.

\*\*\*

تشغلنى أيضا فكرة الكتابة.

تدهشنى فكرة أن أظل نبضا معلقا فى الزمان، أنبض فجأة فى زمان ما، فى مكان ما، أداهم شخصا لا أعرفه ولا يعرفنى على غير موعد، يقرأني.

هل يعنى ذلك شيئا؟.. وما صلتى بهذا الشئ الذى سيبقى مثل

شعاع تائه لنجم ميت؟

أتحسس أعضائى وأفكر، المسألة تستحق التفكير.

\*\*\*

أتفادى لقاء فايز لفترات طويلة حتى لا يشغلنى ببرامجه ومصالحه الخاصة، لكننى حريص على استمرار الصلاة، يفيدنى بعلاقاته أحيانا. عموما هو شخص مُلهم، ينتج أفكارا كثيرة مهمة،

لكنه ليس فعّالاً، أنسب وضع له هو وضع المستشار. أظن أن هذا هو حاله فى الشعر أيضاً؛ يكتب نادراً، ويبحث عن أفكاره فى قصائد غيره.

طرحتُ عليه أفكارى عن الكتابة، فاستبشر، ووعدنى خيراً:

— أظن أنك ستكتب فى النهاية.

— لكننى لا أجد موضوعاً أبداً به.

— اكتب عن جدك، عن عمك، اكتب عن نفسك.

اشتعلت الفكرة الأخيرة فى رأسه، فشجعتنى بحماس:

— لو كتبتَ عن حياتك بصدق وبلا خجل، لاكتشفت أن كتابك

هو أعظم شئ عملته طيلة عمرك، وأن كل ما عداه كان لهوا حتى

اصطياد "الأرانب".

وهمس بنبرة حزينة:

— ماذا يبقى منا فى النهاية غير هذا الشعاع التائه الحزين؛

الفكرة.

لا أدرى لماذا أحسستُ بالحزن معه.

هل هو الحزن الذى تعدّنى به نازك حين تقرأ طالعي؟

نازك مشغولة بالحاج حسين.  
أعرض طريقها أحيانا لكنها تزوغ مني، تخطف كمَّ عباءتها  
من يدي، وتسالني:  
— ماذا تريد؟

أحسدها علي الصيد الثمين، فتمصص شفيتها وترد:  
— مجرد علاقة انسانية، الحاج رجل وحيد، لا ولد له ولا  
بنت، وزوجاته واحدة صماء والأخري عمياء. هو يعتبرني ابنته،  
فهل أتركه يموت من الهمّ وحيدا.  
أفهم انسانيته جيدا؛ رجل بعد رجل، تخطف وتجري.  
مرة؛ شددتها من يدها وأجبرتها علي دخول محلي.  
— ماذا تريد مني؟

— هذا الزرار سقط من قميصي، وأريدك أن تخطيه.  
خاطبت الزرار، ونخست صدري بسن الإبرة أكثر من مرة.  
فعلت ذلك بصمت وغلّ، ثم عقدت الخيط.  
تمهّلت أمام المحل، وسألنتي وهي تشير إلي الاسم المضى في

الواجهة:

— لماذا لا تصدق أنك "وعدي"، وتصبر علي اسم "الأفندي"؟

— منذ متى تعلّمتِ القراءة؟!

— لا أقرأ إلا خطوط الكف والفتجان، لكن أهل الخان يتندّرون

باسم "الأفندي".

— ولماذا يتندرون؟

— اسم كرية، وفيه سخريّة منك، الجميع يتندرون.

وكشفت أوراقا كانت مستورة عني:

— أولهم الحاج حسين، أخبرني أنه كان هنا في الخان كثير من

الأفندية"، وكانت لهم مقاه مخصصة يتحاشي الناس الجلوس عليها

لأنهم يعتبرون "الأفندية" من أبأس المخلوقات.

حكي الحاج إنهم كانوا عاطلين، ولا يعرفون مهنة أو حرفة؛

مجرد زيادة في عدد الخلق. يؤجّرون ملابس أفندية الحكومة

ويجلسون علي المقاهي. يعرضون أنفسهم للإيجار في الجنازات

وزفّات الأعراس. مناظر لزيادة أبّهة أهل الفرح أو الجنازة.

\*\*\*

زعلت بجد.

عانتب الحاج حسين علي ما قاله لناذك، وذكرته بأنه أول من

أطلق علي لقب "الأفندي". تلقّي كلامي بوجه قاس تتشابك دوائره

مثل سلسلة حديدية، وقال:

— لم أكذب علي البننت في شئ. وهل في الخان الآن "أفندي"  
غيرك؟.. أنت آخرهم وأسوأهم.

هم كانوا فقراء؛ يأكلوا بالدين ويلبسون بالإيجار، وينامون  
تحت الكراسي، ويحتالون للرزق بالمشي في الجنازات وزفّات  
الأفراح. نصّابون وكذّابو زفة، لكنهم لا يؤذون أحدا. أما أنت فتأكل  
الجيفة، وتلبس فراء ثعلب، وتنام في حضان دولاراتك.  
لا تنسي أنك بدأت هنا مثلهم؛ كانت نازك توَجِّرك لحسابها،  
مجرد منظر لحمايتها من بلطجية العُمّلات. إذا نسيت فناذك لا  
تنسي، اسألها لتذكرك بما كان.

\*\*\*

لا أستطيع أن أحمّن سر هذه الكراهية المفاجئة. أهو الحسد، أم  
خرف الشيخوخة؟.. أم تُراه يغطي خجله مما يفعل مع نازك؟  
انصرفتُ غاضبا.

جفوتُه طويلا، لكنني ظللت طول الوقت حريصا علي متابعه  
أخباره. كان بعض أهل الخان يتابعون معي بشغف فيلم الموسم:  
"عودة شباب الحاج حسين"؛ مسخرة.



في نزوته المتأخرة أهمل الحاج حسين صلاة الجماعة. كان في حالة انتظار دائم لصوت نازك وحضورها، يخشي أن تقوته لحظة.

احتفظ في خزانة مكتبه بزجاجة ويسكي ومراهم وخطات وأقراص مقوية، ينزوي ويرشفُ ويبلع ويدهن بعيداً عن الأعين، وعندما يضبطه أحد أصحابه بالزجاجة، يفسر له الأمر بلا اكتراث: — صحة الأبدان قبل صحة الأديان، والأطباء يقولون إن الويسكي بالذات مفيد للقلب.

استعداد دائم لمتعة لا أستطيع أن أضمن إن كان نالها أم لا، ونازك لم تخبرني بالطبع.

هي تظهر وتغيب، وهو في انتظاره الدائم، يبيع ويشترى ويساوم بملل، يترقب إطلالتها.

ينتظرها طويلاً حتى تنتهي من أعمالها في مقاهي الخان، وينصرفان في وقت متأخر. هدأة ليل، وحرارات خالية إلا من الخفراء. يميل عليها بطوله الفارع ورأسه الأشيب الصغير، يتركها



تتأبطه وتخبطه بليونة رديها. يودّعه الخفراء.

— طريق السلامة يا حاج.

\*\*\*

طرحتُ علي فايز حكاية "نازك والحاج حسين" كقصة لفيلم. لم يتحمس للفكرة، وأظن أنه لم يسمعني جيدا. كان مشغولا طول المكالمة بالشكوي من و داد:

— تطاردني بالتليفون حتي مطلع الفجر، تسأل عن أخبار فيلمها المرتقب؛ "حياة و داد". أظنها أصيبت بلوثة. لو سألتك عني أخبرها أنني مت أو هاجرت، أو أنني قتلت خورشيد ودخلت السجن. قل لها أي كذبة تجعلها لا تفكر في الاتصال بي، أصبحت تزعجني.

اتصلتُ بي وداد من عند طيبب الأسنان، وقابلتُها في كافيتريا  
الشيراتون. هي التي اختارت المكان، لكنها ظلت قلقة طول الوقت:  
— لا أحب هذه الأماكن المفتوحة، دائماُ أصادف فيها من  
يتذكرني ويتطفّل عليّ. أصبحت أكره الأضواء. كان تفكيري في  
الفيلم غلطة. هل نكمل سهرتنا في البيت؟  
كانت تلبس خاتما به ياقوتة نجمية حمراء. حاولت أن أحدثها  
عن الحجر الثمين لكنها سحبت يدها وأنهت الكلام:

— رخيص جدا جدا.

لم يكن مزاجها مناسبا، وكانت أضواء الممشي الساطعة تخمد  
بريق النجمة في باطن الحجر.  
لا تزال مشغولة بالفيلم. واضح أن المسألة تشغلها طول  
الوقت، تلف وتدور وترجع لها:

\* هل كان يجب علي أن أقبل ذلك الدور الهزيل، ولا أضيع

الفرصة؟

\* هل تظن خورشيد جادا في عمل فيلم عن حياتي؟

\* هل تفكر جديا في مشاركته في الإنتاج؟  
\* في حياتي حكايات كثيرة وأسرار مدهشة، تصلح فيلما في هوليوود.

لم أخبرها أنني قابلت خورشيد أكثر من مرة، وأن بيننا كلاما ممتدا. خشيت أن أعلّقها في حبال وهم فيلم "حياة وداد".  
كنت ودودا معها، وهي كانت عاطفية جدا. خمنت ما يمكن أن يحدث فبدأت أنبض تأهبا للموقف.

\*\*\*

عاملتني في شقتها بمودة وكرم:  
— مددّ رجلك، اخلع قميصك، في صحتك، انهض لأغسل وجهك.

فاجأتني قرب الحمام وأنا أجفف رأسي. كانت تترنح:  
— لا أعرف لماذا أترك نفسي هكذا؟.. هل ضاقت الدنيا إلي هذا الحد حتى أركع لك؟  
ركعت بالفعل. وتسَلَّقتُ ساقَي بيديها وشفّتها حتى سعدت بقبلاّتها إلي منتصفني، وعقدت يدها حول خصري. عقدت يدي علي صدري، وتركتها تفعل ما تريد.  
ظَلَّتْ طويلا راکعة بين قدمي علي سجادة الممر.  
أنبض بقوة.

\*\*\*

شجعتني تصرفاتها تلك الليلة علي أن أسألها عن قضية الشرائط، فردت بصراحة أكبر:

— وماذا فيها؟.. كانت سياسة، تليفق، مؤامرة لإبعادي عن الشاشة. الجميع يعرفون ذلك.

اعترفت بعد أيام أن الشريط صحيح:

— مجرد حديث بين واحدة وصاحبها، لكن الصحف ضخمت القضية. لم أكن أحبُّه ولا أظنه أحبَّتي، كان كل ما بيننا مجرد نزوة، كلام، شقاوة شفاهية.

كان صحفياً مهماً في مجلة فنية، جاملني بالكتابة عني عدة مرات واتصلت به لأشكره، كنت في حاجة لأي مساندة.

مكالمة بعد مكالمة انفتح بيننا باب الوصال التليفوني. هو تسحره أصوات الفرائش، وأنا أستاذة. عملنا كل شيء معا علي التليفون، مجرد كلام. لا أدري هل سجَّلت الأجهزة مكالماتنا، أم هو الذي سجَّل وأنتج الشرائط. لست متأكدة حتي الآن، لكن المسألة في أيِّ من الحالتين كانت مؤامرة صغيرة للإطاحة بي من التليفزيون.

اجتهدت وداد في إقناعي بأن الحكاية في حد ذاتها ليست خطيرة، وأن غيرها من المذيعات ضبُطن في قضايا آداب، بأشرطة

فيديو بالصوت والصورة، ومرّت الأمور بسلام، ولكن توقّيت شريطها كان حساسا ومربيا أيضا.

— لم أكن أبدا عضوا في شلة، لم أربط نفسي بأحد حتي من صنعوا نجوميتي. تعاملت مع الجميع وسأيرت كل الاتجاهات، حتي في السياسة. كنت أظن أن ذلك طريق السلامة، لكن عندما دار الصراع بين الشلل، ضربني الجميع، وجاءت واقعة الشريط لتُجهز عليّ، كنت وحيدة.

\*\*\*

تعدّدت لقاءاتي مع وداد علي مقاهي الرصيف في وسط المدينة، أقرب مكان لعيادة طبيب الأسنان. تبدو ذابلة ومرهقة كأنها تعاني من مرض ما، لكنها كانت مهتمة فقط بأسنانها، الحشو والتركيب والتلميع؛ البريق.

كانت تبيع ذهبها وتدفع لي بسخاء، وتنبهني باستمرار:

— إيّاك أن يعرف أحد أنني أبيع ذهبي.

تحكي عن جارتها الممثلة التي قتلها لص وهو يحاول أن يسرق مصاغها. حكاية قديمة معروفة نشرت الصحف تفاصيلها في حينها، لكن وداد تتذكرها كثيرا، وتختتمها بالسؤال الملح:

— لماذا أحتفظ بذهبي، وأعرض حياتي للخطر؟

طلبت مني أن أبيع لها صندوقا به عشرون قطعة دفعة واحدة،

قالت إنها كانت هدايا لا تستطيع الآن أن تميّز بين أصحابها.  
— عرب ووزراء ولواءات طلبوا الوصال ولم يحصلوا حتي  
علي كلمة، رجال ماركة "اذكريني".  
قالت إن هذا آخر ما ستيبعه من ذهب. وأن ما بقي لديها قليل،  
لكنه عزيزٌ عليها جدا ولن تفرط فيه:  
— مفاتيح ذكرياتي؛ كيف أفرطُ فيها؟!  
\*\*\*

لا تدرك وداد مدي انشغالي، وتفترض أنني جاهز لها دائما.  
أهرب من ثرثرتي التليفونية الليلية، وأحرص علي أن أبعاد بين  
زياراتي لها. أظن أنها وحيدة الآن، ولا يزورها غيري.  
كنت منشغلا جدا بتحويل دكاني إلي مكتب صرافة. خطوة إلي  
الأمم سمحت بها القوانين الجديدة، وعليّ أن أنتهز الفرصة. أظن  
أنني سأكون صاحب أول مكتب لتغيير العملات بشكل قانوني في  
الخان، وربما الوحيد لفترة طويلة.  
ألزمني القانون بتكوين شركة مساهمة، فأشركت معي فايز  
وخورشيد بصورة رمزية، واحتفظت لنفسي بالحصة الأكبر.  
تخلّصتُ من بضائعي، وجهّزت المحل للوضع الجديد. أعددت  
لافتة احتفظت فيها بالاسم نفسه؛ "الأفندي للصرافة". صنعت هذا  
الاسم بنفسني ولا أستطيع أن أتخلي عنه، ماذا يهمني من كلام نازك

والحاج حسين؟.. مجرد حسد.

نازك وحسين؛ فيلم استمر سنوات، والكلام كثير.  
يقولون إنه أجز لها شقة في الدراسة، دفع خلو الرجل من  
جيبه، وكتب العقد باسمها. سألتها عن ذلك حين جاءت لتهنئني  
بافتتاح مكتب الصرافة، وشجعتني علي ذلك أنها كانت هادئة  
ومتوددة وراغبة في الكلام:

— أرائك كثر يا وعدي؛ مبروك.

— ومبروك أيضا شقتك الجديدة.

— ليست جديدة، هي شقة صغيرة في بيت قديم، لكنها أفضل

من جوار الموتى.

— أي موتى؟

— ألم تكن تعرف أنني وابنتي نسكن المقابر؟

— لم تخبريني بذلك.

— لو اهتممت لعرفت. ثم ماذا كنت ستفعل لو أخبرتك؟

— ولماذا تركت مسكنك القديم في "درب الصافي"؟

— كنت أحتاج نقودا لمصروفات الحمل والولادة، فرحت



بمائتي جنيه أخذتها من صاحب البيت لإخلاء الغرفة، وفضلت أن  
أبتعد عن الناس حتي لا أفضح نفسي. سكنت مدفنا مع أقرباء لي،  
فقراء لكنهم طيبون، ستروني ورعوا ابنتي في غيابي.  
أعترف أن الأمر فاجأني، وصدمتني فكرة مجاورة الموتى.  
رَبَّتْ كَتَقَهَا، وَهِيَ أَخْبَرْتَنِي بِلَا خَجَلٍ أَنَّ الْحَاجَّ حَسِينَ سَاعَدَهَا:  
— لم يدفع كل الفلوس، لكنه دفع الجانب الأكبر.  
— أقيم معك في الشقة؟  
— لم يدخلها برجليه أبدا، هي شقة ابنتي.  
— لكن الناس يحكون كثيرا عما بينكما.  
— دائما تحدثني عما يقوله الناس عني، ولا تهتم بأن تسأل  
قلبك.

لاحظتُ لهجتها الجديدة بارتياح.  
أستطيع الآن أن أحمّن النهايات؛ أعرف برنامجها جيدا، وأري  
بوضوح قشعريرة الحية تتقلب في بياض عينيها.  
كنت أريد أن أسألها عن أشياء أخرى، لكنني انشغلت عنها  
لحظات فانصرفت دون سلام.  
كانت وداد قروي علي التليفون.

دعتني وداد للعشاء في منزلها. كانت متوترة وعائبة، لامنتي  
علي غيابي، وأذرتني أنها ستشطب اسمي ورقم هاتفي من ذاكرتها  
لو تكرر ذلك.

اعتذرتُ عن غيابي الطويل بكذبة:

— شغلني عن زيارتك أمر يخصك، عقد فيروز طبيعي أحاول  
أن اشتريه لك. كنت مصمما علي ألا أراك إلا وهو في جيبي، لكن  
البائع أرهقني في المساومة، لاحظ حرص علي الشراء فرفع  
السعر، ومازلت أساومه يوما بعد يوم.

— ليس عندي استعداد لشراء أي شيء الآن فلا توجع رأسي  
بكلامك، أحتاجك لأمر آخر. تعال بسرعة، وهات زجاجة نبيذ.

قبل أن أدير ظهري للتليفون طلبتني مرة أخرى:

— لا تتأخر، نبيذ وسجائر.

دعوة متأخرة للعشاء، العاشرة ليلاً علي ما أتذكر. أنا أيضا  
تلكأت ساعة أو اثنتين، تأهبت بكسل الليلة خمّنت أنها ستكون  
صعبة.

داريت كذبتى بعقد فيروز اخترته من أدراجي. لم يكن عقدا  
أصليا بل خلطة صناعية زرقاء يسميها التجار "الفيروز الألماني".  
أحتفظ بعقود أخري من فيروز طبيعي، لكنني فضلت الألماني  
لرخص سعره، يمكنني أن أفرط فيه.

\*\*\*

دخلت عليها بالعقد فزاد توترها:

— لماذا اشتريته، لا أريده، ولن أدفع جنيها، لست مستعدة  
لشراء أي شيء الآن.

فاجأتها:

— هدية.

دفعتها أمامي برفق إلي المرأة الكبيرة في وسط الصالة،  
وشبكت أطراف العقد حول عنقها. سألتني:

— حجر طبيعي؟

— أصلي؛ فيروز ألماني أصلي.

— بكم اشتريته؟

— هدية، اقبله مني، صممت ألا أراك إلا وهو معي.

— الله عليك؛ بديع.

فردت يدها اليسري للخلف، واحتضنت رقبتى. دارت بأصابع  
اليمنى فوق صدرها حول العقد، وتمهلت أمام المرأة تتأمل المشهد:

— الله عليك .

تراجعت بي إلي الخلف ونحن علي هذا الوضع، كان صدري يلامس عظام ظهرها. حاولت أن تقلد مهارة راقصي البالية، لكن خطاها كانت مرتعشة. مالت برأسها للخلف وقبّلت خدي. كنت مشغولا مثلها بتأمل المشهد، لم أقبلها.

ناولتها كيس الطلبات، فسعدت بزجاجة النبيذ، وشهقتُ بفرح

ماكر:

— هدية أيضا؟!

لكنها احتجّت حين رأّت السجائر:

— غيّرت هذا الصنف بعد أن زاد السعر. لو زرتني قبل

شهرين لعرفت أنني أدخن الآن سجائر مصرية.

— اعتبريها هدية أيضا.

— كل هذا لي؟! .. الله عليك يا ولد.

\*\*\*

لم تتادني باسمي أبداً، أظن أنني ظللتُ بالنسبة لها بلا اسم،

مجرد ولد، نوع.

\*\*\*

ليس علي طاولة الصالون طعام يليق بعشاء؛ زيتون وشرائح

جبين وخيار وطماطم، وزجاجة نبيذ شربت وداد أكثر من نصفها

قبل حضوري.

شربنا النبيذ من كوب واحد، هي فضّلت ذلك، واعتذرت عن  
سوء مستوي الطعام:

— لم أكن واثقة من حضورك، بل لم أكن أنوي أن أدعوك  
أصلاً، لكنني فكرت فيك في آخر لحظة.  
ودخلت في الموضوع.

— أريد أن أبيع آخر ما تبقي من ذهبي، مفاتيح ذكرياتي.  
فتحت الصندوق ووضعت القطع الذهبية علي الطاولة.  
وسألّنتني:

— هذه مفاتيح ذكرياتي، لم أكن أنوي أن أفرط فيها. كم  
تساوي؟

\*\*\*

قرط كبير علي شكل هلال بأحجار من الفيروز. قالت وداد إنه  
ميراثها الوحيد من أمها:

— الشغل تركي والفيروز من أحسن الأنواع في العالم ،  
إيراني. هو آخر ما تبقي من ذهب أمي، باعت كل ما عداه من أجل  
تعليمي في الجامعة الأمريكية.

أنا وضعت الأسرة في هذا الورطة. صممتُ علي دراسة  
الصحافة في الجامعة الأمريكية، وكانت درجاتي العالية في الثانوية

تضمن لي منحة تعفيني من الرسوم في السنة الأولى. فرحت،  
وفرحت الأسرة كلها؛ وجاهة.

بعد السنة الأولى كان عليّ أن أسدد الرسوم، لم أحافظ علي  
تفوقي؛ حب وكافيتريات وحفلات، ورطت الأسرة في دفع  
المصروفات.

أبي كان مديرا عاما لإحدى شركات القطاع العام، لكن مرتبه  
كان يكفي مصروفاتنا بالكاد، سيارة وشغالة ونادي ومصيف. أمي  
ساعدت ببيع ذهبها، وأعطتني آخر قطعة منه يوم التخرج. لبسته  
أول مرة يوم امتحان التليفزيون، كان الفيروز فال خير، معناه  
بالفارسية "حجر النصر".

\*\*\*

خاتم بفص كبير من الياقوت النجمي، قالت وداد إنه أول هدية

حب:

— عرفته في أول الطريق. كنت مذبة تحت التدريب، ولم  
تكن لدي واسطة تسندني. هو اكتشف إمكاناتي وراهن علي بشدة،  
كان مخرجا عبقريا.

يكبرني بعشرين سنة، لكنني أحببته بشدة، وجوده يعني الكثير  
بالنسبة لي؛ محور أحلامي. هو أيضا أحبني، اعتبرني شيئا يخصه.  
ذاب فيّ وذببت فيه؛ نشغل ونحب بجنون. أعطاني كل وقته وجهده

وقلبه، تخلي عن برامجه المشهورة وتفرّغ لإطلاق الصاروخ.  
وانطلق الصاروخ.

بعد سنتين كنت نجمة، اسمي أكبر من اسمه، والكبار يتهافتون علي برامجي. فرحت بنفسي، وانشغلت بصراعات وعلاقات جديدة. لم أنتبه لما كنت أفعل، لكنه لاحظ. ابتعد خطوة خطوة، ثم دعاني للعشاء في كازينو علي النيل.  
كان حزينا خلال اللقاء. اعتذر عن أنه لم يقدم لي هدية خلال حبنا الطويل، وفاجأني:

— الآن وقد انتهى حبنا أستطيع أن أهديك هذا الخاتم.

فرحت بالخاتم وبالخاتمة أيضا، لكنني اندهشت من طريقته في التفكير. كان عبقريا مجنونا. لم أسمع منه كلمة "حبنا" خلال علاقتنا التي استمرت أكثر من عامين، نطقها فقط في عشاء الوداع، وقدم هديته الوحيدة، النجمة، الياقوتة.

لم يتعجل في وضع عنوان العلاقة منذ بدايتها، ترك العنوان لآخر سطر، ونقشه علي الخاتم بالنجمة؛ أنا.

\*\*\*

قلادة من الذهب الأبيض بكرات متدرجة الأحجام من حجر القمر. رأيته بهذا العقد يوم تعارفنا. مددت يدي أتحسسه فأطبقت يدها عليه وضمته إلي صدرها:

— الله عليه، أحبني بجنون وأهداني هذا الحجر الغريب، كل يوم يكون في حال من حالات القمر في نوره وظلامه، لهذا سموه حجر القمر.

كان مسئولى التثقيف في التنظيم، ومعلقا سياسيا بارزا في الإذاعة. واسع العلاقات جدا، وعلي أعلى المستويات. أفادني كثيرا. مثقف، كأنه يعرف كل شيء، وكلامه كبير. كلام من النوع الذي تتمنى أن تقوله، وأن تتقن كيف تقوله. تعلمت منه. كان واثقا محبا للحياة، وله هوايات غريبة. يحتفظ في شقته ببيغاء استرالي، درّبه علي جملة واحدة: "تحيا مصر".

في شخصيته مرح لا يناسب وزن عمله الفكري، ويصل أحيانا لدرجة الخفة. ابن نكتة، يسخر حتي من قصر قامته. أنا طويلة جداً، وهو شبر ونصف، حين يكلمني يكورّ يديه حول فمه كبوق، ويقلب وجهه إلي فوق مناديا: "انزلي سلمتين يا وداد".

يناديني أنا الطويلة جداً لأنحني كي يقبلني، ويشبّ هو علي أطراف أصابعه ليكمل بقية المسافة. ما كان أحلاه، يشب كأنه يلامس القمر، يكسر ظهري بقبلته. يقبلني والبيغاء يصيح بابتهاج أمامنا: "تحيا مصر".

بعد النكسة فقد بريقه، سكنت الميكروفونات، وتحول هو إلي مجرد موظف كبير بلا صلاحيات في مكتب رث. انزوي حتي في



التشكيلات الحزبية. قل احتكاكي به.

أصادفه أحيانا فيعاتبني علي ابتعادي عنه، ويسألني:

— ألم تكوني تصدِّقين؟

— أتتصوّر؛ ولامرة فكّرت. أتصدِّق؛ والله ما فكرت، لكن

الكلام كان يعجبني، يطربني.

— كلكم لم تفكروا، واكتفيتم بالطرب.

\*\*\*

تسألني وداد:

— أسمعُت الجملة يا ولد: " لم تفكروا واكتفيتم بالطرب". ماذا

كان يقصد؟! حتي الآن لم أفهمها.

يذكرني حديثها بكلام لأبي؛ "الطرب السياسي".

\*\*\*

قالت وداد:

— خسر كل شيء بالتدريج حتي مكتبه. لم يعتقلوه في ثورة

التصحيح، وإنما طردوه من الإذاعة إلي شركة "باتا" في حركة

تطهير. لم يتسلم عمله الجديد. لزم شقته، يبحث عن أصدقائه

القدامي بالتليفون.

مات بعدها بشهور وهو يتصفح الجرائد ويتأرجح علي الكرسي

الهزاز، والبيبغاء يصيح أمامه: "تحيا مصر".

\*\*\*

دبلة سوليتير. ذكرت وداد أنها كانت شبكة الخطوبة من زوجها الوحيد؛ الطيار. مات في حرب العبور. لم يعاشرها طويلا، أقل من سنة ومات.

قالت:

— لم أفقده، ولم أحزن طويلا. استشهاده شرفني، رفع رأسي. من يومها صاروا ينادونني: "أرملة البطل".

\*\*\*

في الصندوق كيس حريري قالت وداد إن فيه أشياء أخرى: — عقود وأقراط فضية، مشغولة بعقيق بلدي وكهرمان مضغوط ومرجان مصبوغ بالليزر وملكايت، أشياء بلا قيمة، لا تساوي.

خجلت من كلامها، فأغلب هذه الأشياء اشترتها عن طريقي. خجلت أكثر من عقد الفيروز الزائف الذي أهديته لها أول الليل. هي تنبهت لحرجي وجاملتي:

— هذه العقود غالية عندي لأنك اشتريتها بذوقك، وأغلاها عندي هديتك؛ عقد الفيروز، كأنه أصلي، الله عليك يا ولد. انفردت وداد بزجاجة النبيذ الثانية، ومع آخر قطرة كانت في حالة مرهقة من الإعياء والشجن وهي تحكي:

— عشت حكايات كثيرة بعد طردّي من التلفزيون، حكايات قصيرة جدا. كنت أعرف من بدايتها أنها لن تكون مسلسلات طويلة، أو برامج تستمر أسابيع أو شهورا، مجرد حلقة، سهرة درامية تنتهي في ليلة، أو أسبوع علي الأكثر.

أحيانا كنت أقنعُ بقبلة، أو بوصلة حارة علي التلفزيون. عشت آخر سنيني امرأة مهجورة.

كانت حزينة ومهانة. مال رأسها علي كتفي، وتدلت يداها حول رقبتني باستسلام. واصلت همسها:

— ظللتُ مهجورة حتي رأيتك، أم تراني أعيش وهما؟.. لماذا أتق بك وأحكي لك كل شيء؟!.. هل ضاقت الدنيا إلي هذا الحد؟.. لا أظن أنني أحبك، لكن لا أستطيع أن أستغني عنك، ماذا فعلت بي يا ولد.

فكّت أزرار قميصي وهي تتقلب فوق صدري :

— لماذا لا تخلع ملابسك. تكلمت كثيرا هذا الليلة، فقبلني لأسكت.

\*\*\*

وأنا أقبلها تسلل بعض من فتات أضراسها إلي فمي؛ لعق لسانها سقف حلقي فأحسست بالخشونة. كانت تتأوه من النشوة وأنا أدفع الفتات الخشن بطرف لساني إلي حافة شفتي ثم أبعده بإصبعي.

تَشَبَّثَ بيدي:

— لا تبتعد.

تَرَكْتُهَا تَضْمَنِي بالطريقة التي تريدها، وهي ظَلَّتْ تَتَمَطَّى وتتأوه. أظنها كانت نشوة زائفة.

سَأَلْتُني إن كنت قد استمتعت، فمسحت شعرها براحتي واحتضنت فروة الرأس بحنان. أظن أن لمستي الزائفة كانت جوابا مناسباً طمأنها علي مستوي الأداء.

\*\*\*

استيقظتُ بعد الظهر، لم يكن لدي جهدٌ أبذله في لمسات إضافية. وهي كانت متعبة إلي درجة الإعياء، متعبة وقلقة، لم تهتم بإفطار ولا بكوب شاي.

سلمتني مفاتيح ذكرياتها:

— لم يعد عندي شيء أبيع، هذا آخر ما عندي.

نيهتها بدوري إلي أن بيع الذهب والألماس معروف، لكن بيع الأحجار صعب، وبخسائر دائما. قلت:

— البيع غير الشراء.

— حاول بأعلي الأسعار، ولا تتأخر. أحتاج نقودا، ثم أنني لا

أريد أن يعرف الناس أنني أبيع ذهبي.

\*\*\*

حملت الصندوق وانصرفت وأنا أفكر في معرفتها بالأحجار،  
كلامها الأخير بيّن لي أن خبرتها ومعلوماتها أكبر بكثير مما  
توقعت. كانت تستطيع أن تفرق بين الحجر الأصلي والزائف، لكنها  
أخفت ذلك عني وقبلت كل ما اشتريته لها، ودفعت الكثير. كل مرة  
تشهق من الدهشة وتدفع:

— الله عليك يا ولد، بديع.

لماذا كانت تغفل ذلك؟

أغلب الظن أنها كانت تدفع الثمن.

ثمن ماذا؟.. أفكر.

\*\*\*

مانت وداد ومفاتيح ذكرياتها لاتزال في خزانتي. قرأت الخبر  
وتابعت ما نشر عنها؛ أخبار ومعلومات قليلة، وصور من  
الأرشيف، ولقطة في التليفزيون بالأبيض والأسود من أحد برامجها  
القديمة.

فازت نازك بقلادة حجر القمر.

لا أعرف كيف استطاعت أن تغافلني وتهرب بها، ولا كيف سهوتُ أنا بهذه البساطة. ربما أربكتني زيارتها المفاجئة في المنزل، صحيح أنني كنت أتوقع شيئاً مثل ذلك، لكن ليس بهذه السرعة.

وجدتها ذات ليل تنتظرني أمام باب الشقة؛ اللقطة المعهودة. غفّت وهي جالسة ورأسها مسنود علي خشب الباب. أحسّت بي فألقت نفسها في حضني، وشهقت دامعة:

— آه يا وعدي؛ أذهب لآخر الدنيا وأرجع لك، لا أدري ماذا أفعل بنفسني بدونك؛ قدرٌ مكتوب.

أخمن دوافعها؛ إما منفعة عملية، وإما أنها تريد الاحتماء بي من شخص ما، أو تريد أن تقطم نفسها عن علاقة استنفدت أغراضها.

برنامج لا يتغيّر؛ ترجع بعد غياب، وأنا أتقبل، وهي تتمم: "مكتوب".

أبدي دائما فتورا في تقبلي لرجوعها، لكن هذه المرة وجدت  
نفسي أرحب بها، ربما لأن هذه العودة تعني شيئا ما بالنسبة  
لعلاقتي بالحاج حسين. لا أغفر له أنه أهانني من أجلها، وعليه الآن  
أن يعرف عن أي امرأة كان يدافع.  
رَبَّتْ شعرها، وتركتها تسكن في حضني طويلا تحت نسيمات  
المكيف الباردة، ثم سألتها بهدوء:

— ماذا تريدين الآن؟

— أريدك أنت يا وعدي، شوقي لك يذبني كل يوم ألف مرة.  
— أعرفك يا نازك، وأراهن أنك تريدين شيئا ما، منفعة ما.  
— أريد أن أهرب بك لآخر الدنيا، إلي مكان لا يرانا فيه أحد.  
جرّب يا وعدي؛ وتعال نهرب..  
— .. ونركب معا الحصان المجنح، المعلق بين السماء

والأرض!

— بل نذهب إلي أي مكان علي البحر، تلك الشواطئ البعيدة،  
"فايد" أو "مطروح"، وسأدفع كل التكاليف عني وعنك.  
أخمن دوافعها الماكرة، لكن الفكرة راقنتي. كان غيابها الطويل  
جارحا لكبريائي، وأريد أن أتقرّغ قليلا لترويضها، أن أكسر أنفها.  
كما كنت أريد أن أخلو بنفسني لأتخذ قرارا في موضوع الإنتاج  
السينمائي بعيدا عن إلحاح فايز وخورشيد. أخبرتها أنني سأفكر في

الموضوع.

وبدأتُ الترويض.

أمرتها أن تنظف الأرض مكان خطواتها، وأن تستحم لأن رائحة جسدها وملابسها تزعجني.

فعلت ذلك برضي، وعادت من الحمام عارية إلا من فوطة ملفوفة حول شعرها.

كان عقد وداد علي المكتب فشبكته حول عنقها، وتقلب حجر القمر الثمين في الضوء الساطع بزرقة قوس قزح.

هجمت بصدرها اللين علي وجهي، ودعتني أن أنظر جمال

العقد:

— ألا يناسبني؟

تجاهلت إغراءها المبتذل، ثم ناولتها جلبابي، وأمرتها أن تجلس. حشرت جسدها البدين في الجلباب، وركعت جنبي مثل قطة. سألتها:

— أين ستتركين أبنتك لو سافرنا؟

— نور كبرت؛ ما شاء الله. هي الآن في التعليم الإعدادي، وجارتي ترعاها في غيابي. مسكينة الجارة؛ تطارد زوجها الهارب في المحاكم من أجل النفقة، وتخدمني وترعي ابنتي مقابل لقمته. لم أقرب منها في تلك الليلة، كان لابد أن أحبط برنامجها



المعلوم. سألتها عن أحوالها مع الحاج حسين، وهي تصنعت الدهشة لسؤالي:

— وماذا يقلقك من الحاج حسين وهو في عمر أبي؟!.. الرجل صاحب فضل عليّ في موضوع شهادة ميلاد ابنتي، وأنت الذي نبّهتني لذلك، فهل أخطأت في رد المعروف؟!.

أثبتت ساخراً عليّ طريقته في رد المعروف، لكنها تجاهلت تلميحاتي، واستمرت تتحدث عنه بالخير:

— له أفضل كثيرة؛ آخرها مساعدته لي في موضوع الشقة، أخرجني من حياة القبور بشهامته.

وشرحت المسألة بالأرقام:

— دخلي يكفي مصروفات مدرسة ابنتي بالكاد، لم أدفع للشقة أكثر من خمسة الآف جنيه ادخرتها جنيهاً فوق جنيهه، ودفع الحاج عشرة الآف من جيبه ليكمل "خلو الرّجل" المطلوب، وعندما حاولت ان أرد له بعض ماله رفض.

أخبرتها أن حكاية "شقة الغرام" شائعة بين أهل الخان وفيها روايات كثيرة، فأفسمت أن الحاج حسين لا يعرف مكان الشقة وقالت:

— كل الحكاية أننا كتبنا العقد في دكان الحاج، فأنا لا أقرأ ولا أكتب كما تعرف، وكان لابد أن ألجأ إليه ليطمئنني لسلامة العقد قبل

أن أبصم. رأنا عبده القهوجي فحكي الحكاية بطريقة تشفي غليله،  
الغيرة لسعت قلبه ولسانه.

— ولماذا تهربين منه الآن؟

— أخشى أن يحبني، فيعذب نفسه ويعذبني. لا بد أن أظمه قبل  
أن يفوت الأوان.

— الآن فقط وبعد ثلاث سنوات سيبدأ الحب؟!!

— ألاحظ ذلك، وأشفق عليه. اسأله إن كنت لا تصدقني،  
وسيقول لك إنه الحب.

كانت تتكلم ببراعة تدهشني. سألتها:

— وماذا كنت تفعلين طول هذا الوقت؟

— أخدمه كما خدمني، وأرد بعض أفضاله. أنظف مكانه  
وأطبخ له وأخفف وحدته، مسكين بين زوجتيه العمياء والصماء.  
أحياناً كنت أدللّه مثل طفل، لكنني لم أقصد أن أشجعه علي شيء،  
هو الذي يريدني جنبه.

— والآن؛ ماذا جري؟

— كما قلت لك؛ أخاف عليه مني، أخشى أن يتعلق بي بينما  
قلبي مع "وعدي".

ضغطت علي منكبي بليونة صدرها، واثرايت بشفتيها صوب  
فمي، لكنني تباعدت عنها وأمرتها أن ترتدي ملابسها وتتصرف.

طلبت منها أن تجهز نفسها للرحلة التي اقترحتها، وحسب الشرط الذي حدّثه بلسانها؛ أن تدفع التكاليف.

لبست في دقيقة، ربّما أقل، وسألتي قبل أن ترحل:  
— ألن تقبلني؟

— مع السلامة، أراك بعد غد، هنا.

— بخيل حتى بشهوتك يا وعدي.

\*\*\*

اختفي العقد الثمين تحت طوق عباءتها. فرّت به، ولم أنتبه لاختفائه إلا بعد انصرافها. سألتها عنه خلال رحلتنا إلي شاطئ فايد فقالت إنها اعتبرته هدية، وأصرّت علي أنها لن تعيده مرة أخرى:

— هديتك الوحيدة علي مدي العمر، فكيف أردّها؟!

— لم أهدك شيئاً.

— بل تركنتي ألبسه، وفرحت عيناك بروية بريق أحجاره فوق

حلمات صدري، ألا تتذكر ذلك؟!

— البسيه لي إذن، أريد أن أراه علي صدرك.

— أفهم ما يدور في رأسك يا وعدي، لكنني أنصحك أن تتسي

العقد؛ لن تراه مرّة أخرى. سأحفظه في علبة مبطنّة بقطيفة حمراء

لأباهي به النساء في ليالي الشتاء آخر العمر، وأقول لهن: "هو

هديته الوحيدة".

\*\*\*

هل كان من الضروري أن أري العقد مرة أخرى؟

\*\*\*

حاولت نازك أن تبدو سعيدة بالرحلة لكنني لاحظت أنها قلقة طول الوقت. كانت تبدد انفعالاتها في ثثرات مُعادة. ثثرات مضجرة تشبه مناديل "الكليوكس" المستعملة. بالمناسبة؛ هي لا ترمي المناديل، تكحّ وتنفّ ثم تطوي المنديل وتعيده إلي جيبها. لم أهتم بمضمون كلامها وإنما بحالة الكلام. كان صوتها يأتي من منطقة خفية في عمق الأعماق هادئًا محمّلًا بحزن وخوف، وكانت عباراتها تتشابك دون سياق مفهوم، تنتقل من فكرة إلي أخرى بلا رابط، البنت وحسين والشقة وعفرانيت المقابر. سألتها عما يربكها، فذكرتني بأن هذه هي المرة الأولى التي نخلو فيها ببعضنا في مكان بعيد عن الناس:

— أول مرة يا وعدي ولعدة أيام. لا أصدق نفسي، وأخشي أن أفيق من الحلم فلا أجدك إلي جوارِي. أفكر طول الوقت في أن ذلك لابد أن يحدث؛ مكتوب.

أخبرتني أيضا أن حال الحاج حسين يقلقها، لأنها تدرك أن ابتعادها عنه سيحزنه كثيرا.

هذه هي نازك كما أعرفها دائما؛ خطفت فلوس الشقة من

الرَّجُل وهربت، والآن ترفرف فوق جنة ضحيتها بأجنحة ملاك.  
غطست في كلام طويل عن الحاج حسين، وأنا غصت خلفها،  
كنت أريد أن أري الأعماق، سألتها:  
— لماذا لم يتزوجك؟

— دائما كان يلمح لذلك، ويقول لي: "لو حملت كل هذا العمر  
علي رأسي، وجئت إليك ماشيا علي أقدامي ستين عاما من أجل أن  
أعيش جنبك يوما واحدا، لحمدت ربّي، وحسدت نفسي علي  
النعمة".

— ولماذا لا تتهزين الفرصة، وتقيمين معه في بيته مكان  
ماريا؟.. لاتزال لديه فلوس كثيرة، ولن تجدي أفضل منه.  
— كيف أعيش وفوق رأسي ضربتان تدبان فوق سقفي  
بالقباقيب؛ واحدة عمياء والأخري صماء؟!.. كفاني مالقيت مع  
ابنتي من معاشرة عفاريت المقابر.  
وغسلت يديها من دمه:

— خدمته بإخلاص مقابل كل جنيه أخذته منه، لكنني لا  
أستطيع أن أبيع نفسي إلي النهاية؛ ملعون أبو الفلوس.  
ثم صححت مسار الكلام بطريقتها، وألبستني عمامة المسؤولية:  
— كيف يمكنني أن أقبل ذلك بعد أن لقيتك مرّة أخري يا  
وعدي؟

\*\*\*

ساعدتني رحلة الأيام الثلاثة علي إتخاذ قراراتي بهدوء، وأن  
أعد نفسي لمرحلة جديدة. أخبرت فايز فور رجوعي أن يبلغ  
خورشيد موافقتي علي مشاركته في الإنتاج.

\*\*\*

يحيرني فايز كثيراً.

ألاحظ أحياناً أنه يشحن نفسه بمشاعر ضخمة من أجل القيام  
بأعمال تافهة، أو شرح فكرة بسيطة لا تستحق كل هذا المجهود  
الكبير. يستغرق "الشحن" أحياناً عدة أيام، مع تدريبات تمثيلية علي  
درجات الصوت والسكاتات والإيماءات.

يتأهب للأداء بثرثرة طويلة حول الموضوع، يتحدث فيها عن  
مواقف مماثلة تصرف أو فكر فيها كما ينبغي أن يكون؛ ويشرح  
كيف ناقش وتحدي وأقنع وفرض موقفه في النهاية. يستعين دائماً  
بأخلاق أكاذيب تجعله قادراً علي حسم الحديث بفخر.

لم يُبلغ خورشيد موافقتي علي الفور كما توقعت، لكنه ظل  
أكثر من أسبوع يحرضني علي أن أشرط أن يتولّى هو أمر القصة  
والسيناريو:

— سيكون ذلك لمصلحتك، وسأتنازل لك عن حقي في كتابة  
اسمي كمؤلف للقصة، يكفيني السيناريو.

حكي لي كثيرا عن مواقف اضطر فيها للتدخل بحسم لإنقاذ خورشيد من سيناريوهات فاشلة، وتولي بنفسه ترميمها مقابل مبالغ زهيدة، ودون تسجيل أي حق أدبي له في "تيترات" الأفلام، وقال:

— أحيانا أهتم بذلك، وأحيانا لا أهتم لكثرة مشاغلي. لكن إذا اشتترطت أنت علي خورشيد أن أتولي الأمر منذ البداية فسأتفرغ لكما، وسأدير الدعاية للفيلم بنفسني أيضا.

\*\*\*

الأحظ أيضا أنه يستغرق أحيانا في نقاشات حامية لكن بلا معني ولا فائدة، وكأنه يقاتل حتي الموت من أجل لا شيء. سجّلت له مرة نقاشا مع موزة استمر حتي مطلع الفجر. كنت أجربّ جهازا جديدا أهدته إليّ موزة، وسجّلت بلا قصد.

بدأ الكلام بحوار سياسي حول "الدكتاتورية"، وكان رأي فايز أنها تتطوي دائما علي تصور خاطئ للحتمية التاريخية. قال:

— يتخيّل الدكتاتور دائما أنه ينفذُ مشيئة القدر، وأنه بمعني ما وكيل الله في الأرض، ولا خيار لشعبه غير ما يراه. كنا في شبابنا متحمسين للحتمية التاريخية، رأينا المسارات في اتجاه واحد، ولم نطقن إلي أن هناك بدائل دائما، ولهذا انسقنا بحماس إلي قبول الدكتاتورية.

كانت موزة متحمسة لفكرة الحتمية كما طرحتها الشيوعية،

سألته بتحفز :

— هل تتكر الفكرة من أساسها؟

— ربما كانت هناك حتمية مؤكدة فعلا، لكن عين الراصد تتوه عنها. لا تري ما هو محتم فعلا، وإنما تتوهمه في تصورات أخرى. سقوط رهان علي حتمية ما لا يعني إلغاء فكرة الحتمية من أساسها.

— لا تنس يا أستاذي أن عين الرّاصد جزء من الظاهرة المرصودة. أظن أنني قرأت كلاما مثل هذا لعالم طبيعة متفلسف اسمه ديفيد بوهم. طريقة رؤيتنا وأدواتنا ومناهجنا هي جزء مكمل للظاهرة التي نحصنها ونأملها. باختصار؛ وعينا مندمج تماما في العالم الموضوعي، هو نقطة مضيئة ومميّزة، وهو قوة فاعلة أيضا. تصورنا للحتمية هو الحتمية ذاتها، وإلا كنا نتحدث عن افتراضات نظرية لا وجود لها في الواقع الإنساني.

— هذا لا يغير من الأمر شيئا، يظل هناك شيء محدود اسمه "وعينا بالظاهرة"، وهناك مطلق كبير اسمه "العالم الموضوعي" بظواهره الكثيرة. وعينا جزء من كل، هو قطرة صغيرة في محيط كبير يحكمه قانون كليّ استكشّف العلم بعضا منه، ولانزال نجهل الكثير.

القانون الكليّ قد يفسّر في النهاية اتجاهات وعينا، لكن وعينا



يظل قاصرا عن الإحاطة به أو تقدير مساراته الحتمية. الوعي محكوم به وليس حكما عليه. أقصى ما نقدر عليه أن نخمن، وتخميناتنا في الغالب مرهونة بإمكاناتنا المعرفية ومصالحنا ومناهجنا وأهوائنا، أو ما يسميه فرانسيس بيكون "أوهام الكهف" أو أوهام الذات.

— أري يا أستاذ أنك تخرج من فكرة الحتمية التاريخية كما طرحتها الشيوعية إلي ما هو أقرب للقدرية الصوفية. قدرية تشبه هذا الذي تسميه البنت العجربة "المكتوب". ينتهي الأمر بنا إلي شلل الإرادة؛ الاستسلام.

ذكرني الحوار الممل بنازك وحسين.

كانت فترة الفطام صعبة علي الحاج حسين .  
أراه علي مدخل الدكان صامتًا، محدِّقًا في أشياء لا يراها  
غيره، ينزوي داخله يوما بعد يوم. أحيانا يجلس داخل الدكان تأثها  
أمام المرايا، أظنه يحاول أن يتذكر نفسه، كأنه أصبح مجرد صورة  
تذكارية لشخص اسمه حسين. يتأمل الشبّة الهارب تحت تجاعيد  
الوجه، وخلف النظرات التي انطفأت. هل كان يحاول أن يدافع عن  
الشخص الذي كان؟.. وماذا كان يستطيع أن يفعل؟!  
مستعد أن أخسر كل الناس إلا الحاج حسين، فيه شيء ما  
أحتاجه، شيء غير كل الخدمات التي حصلت عليها منه، لا أعرف  
ماهو بالتحديد، لكنني أحسه بشكل غامض. أظن أن علاقتي به  
تزيدني احترامًا أمام الناس.  
أزوره أحيانا وأسأله عن أحواله، فيشكو من آلام أظن أنه لا  
يحسّها في جسده، وإنما يختلقها ليداري بها همّه وحرقة قلبه. أحيانا  
تدمع عيناه من الشوق.

\*\*\*

أظنّ أن الحاج حسين رأي الحية بوضوح في عيني نازك، كان يراها طول الوقت، لكنه تغافل عما رأي. أظنّه في انتظاره الطويل الآن يتذكر كل نظرة ولفتة ولمسة، ويعذب نفسه في تخيل سيناريوهات مريبة.

حاولت أن أصحح علاقتي به، وهو تقبل ذلك، فتحّ الباب لكن دون ترحيب. لا أستطيع أن أخمن مشاعره نحوي.

أراه عابسا أغلب الأحيان، وقد أطبقت أقواس وجهه علي ملامحه، وتشابكت مثل أساور حديدية تقيد مودته المعهودة. لا أعتقد أن تجاعيد السن هي المسئولة وحدها عن ذلك.

يحاول أن يبدو متماسكا، وأن يحتفظ بأناقته ورسائته في الكلام. لكنه ينسي سياق الحديث أحيانا، فيظل ينقر جبينه بأصابعه ليبعد الخيالات التي تشتت أفكاره، وحين يتوه تماما يتوجّع من آلام جسمه؛ الروماتيزم والكلي.

يفسر البعض حالته بزجاجة الويسكي التي لايزال يحتفظ بها في خزانة مكتبه، لكني أري ما هو أبعد من ذلك، بل وأكاد ألمس بيدي عمق الآلمه. توقعت منذ البداية أن يصل إلي هذا الوضع، وربما لهذا السبب كنت أشفق عليه من نازك. أظنني كنت صادقا في إشفافي.

حاولت أن أخفف همومه بالحديث عن نازك، لكنه ظل

متحفظًا. كان يفسر تباعدهما بحرصه هو علي قصّ ألسنة الناس،  
ويتحدث عنها أمامي بشكل محايد:

\* مسكينة، تحتال علي الحياة من أجل تربية ابنتها.

\* حين تعيش بين الموتى في المقابر أكثر من عشر سنوات  
فإنك لا تعرف أي أشباح يمكن أن تسكنك.

\* الحقيقة أنها لم تطلب مني شيئًا أبدًا، وإنما أعطيت كل شيء  
برضاي. كان المدفن الذي تقيم فيه يوشك أن ينهار علي رأسها  
ورأس ابنتها بعد أن شرّخه الزلزال. دفعت ما دفعت من باب  
الزكاة.

كلامه بهذه الطريقة لا يخفي شجنه، ألاحظ ذلك في إيقاع  
صوته، وإيماءات جسده. كان يبدو مثل ممثل عجوز متعب علي  
خشبة مسرح، يؤدي دور فارس نبيل، ووجهه مُنقل بأصابع  
ومساحيق. أحيانًا يبدو المشهد هزليًا.



عرضتُ علي فايز مرة اخري حكاية حسين ونازك كموضوع  
لفيلمانا، وهو تحمّس هذه المرة.

بدا جاهزا لتنفيذ أي فكرة، لكنه أضاف من عنده "توابل"  
سينمائية تجعل الفيلم أكثر جاذبية؛ خمارة وراقصة وسط منطقة  
مقابر "البساتين"، وصراع بالسكاكين بين المتشردين علي الإقامة  
في "الأحواش". علاقة حب بين الراقصة وأحد تجار الخان، تنتهي  
بسحب آخر جنيه من جيبيه، واضطراره للعمل خادما في الخمارة،  
والسكن في المقابر.

عرض الفكرة علي خورشيد، وطرح أكثر من اسم للفيلم،  
"بساتين العذاب"، أو "غرام بين العفاريت"، أو "نزاكا وكاكا".  
تركته يرتب شغله كما يشاء، لكني طلبت منه أن يبذل أسماء  
الشخصيات:

— أي أسماء، إلا نازك وحسين.

\*\*\*

انتهى التصوير خلال شهر، وعاد "الأرنب" الذي شاركت به

في الإنتاج ومعه نصف أرنب آخر. حقق الفيلم نجاحا تجاريا مقبولا، لكن بعض النقاد هاجموه. قرأت عناوين كثيرة في صفحات الفن، لكن ليس علي النحو الذي وعدني به فايز، عناوين مثل: "نزاكا وكاكا.. خطوة أخرى علي المنحدر".

لم أكرر التجربة إلا بعد ثلاث سنوات، كانت القفزات المتتابعة في سعر الدولار تغريني بأرباح أكبر.

ساعدتنا موزة في تسويق الفيلم خليجيا، لكنها لم تكن سعيدة به لأن فايز أفرط في التوابل السينمائية، وحوّل مأساة الفقراء الذين يعيشون في المقابر إلي مليوندراما غرامية.

صارحتني برأيها بعيدا عن فايز، ووعدتني أن تشارك معي في الإنتاج لو فكرت في عمل فيلم عن جدّي:

— لابد أن نفكر في فيلم يجسد القلق الذي نعيشه، العذاب الذي نكابده بحثا عن معنى لحياتنا، المستقبل الذي نندفع إليه دون أن ندري شيئا عنه وكأننا ننحدر إلي هاوية.

كانت موزة تزداد قلقا وتوترًا يوما بعد يوم، وتحاول أن تغطي همومها الحقيقية بمناقشات ملتعبة في السياسة والأدب. ساقها ذلك إلي خلاقات كلامية حادة مع أغلب أصحابها حتي فايز. أكاد أكون الاستثناء الوحيد، وربما يكون السبب الذي خمّته هي صحيحا:

— أنت لا تختلف مع أحد، لأنك ببساطة لا تهتم بأي شيء لا

يخصك، ولا تري إلا نفسك.

أشم في كلامها رائحة نازك.

أعرف أن علاقتهما مستمرة بل وتزداد اقترابا، بينهما تفاصيل كثيرة؛ نَفّ ووشم وتديك وقراءة طالع، ومخدرات أيضا. أستطيع أن اخمن ما يدور بينهما من كلام.





لم تعد موزة تلك الفتاة المنطلقة التي عرفتها قبل خمسة عشر عاماً، صارت امرأة مثقلة بهموم العمر والغربة وخيالات الشعر. تبدو أغلب الوقت مجهددة وقلقة، وقد تآثرت تجاعيد خفيفة حول فمها.

استقرت في شقتي المفروشة في المهندسين. جدت أئانها علي نفقتها وبسقاء، وتعيش حياتها يوماً بيوم بعيداً عن بلدها بلا حجة واضحة، لادراسة ولا عمل. تصلها مصروفاتها من أهلها بانتظام، ولا تزورهم إلا نادراً. لا أفهم جيداً معني هذا المنفي الإختياري، ولا مغزي قبول أهلها لهذا الوضع. هل هو جنون الشعر؟ أظن أنها لا تعرف ماذا تريد بالضبط. تحدثني أحياناً عن حبيبها حفيد العبيد فأتوه في كلامها؛ لا أعرف أهو حب أم كراهية. هي نفسها تسأل: "هل يرفضني، أم يخشي أهلي؟!".

\*\*\*

يقولون إن الأربعين سن اليأس للمرأة، لكنها بالنسبة للرجل سن الحكمة، وأظن ذلك صحيحاً.

ألاحظ أنني منذ تجاوزت الأربعين أصبحت أكثر ميلاً للتأمل،  
وأنتي أطرح علي نفسي أسئلة لم أكن أشغل نفسي بها من قبل.  
سؤالي الأهم: "وماذا بعد؟"

أظن أن في داخل كل إنسان كائنا آخر متأملاً، يستقبل الأمور  
بلا حزن وبلا ابتهاج، ويعيد فحصها في خفاء النفس. لا نحس به  
في البداية، لكنه ينتفخ ويكبر مع الأيام. نكتشف في مرحلة ما أنه  
يحتل داخلنا مساحة أكبر مما نظن، يكاد يملأنا، وأن الشخص الحي  
مجرد قشرة خارجية.

أكتب تأملاتي وأفكاري ومذكراتي أحياناً. أعرف أن ذلك  
مضيعة للوقت، فأنا بطبعي أحب أن أعيش حياتي بعمق وإحساس  
حي، لكنني أجد في الكتابة شيئاً ما يغيرني. ربما كان ذلك بتأثير  
علاقتي الجديدة بالسينما، وربما كانت مناقشات فايز و"موزة  
وأخواتها" أحد الدوافع؛ مجرد عدوي، انفلونزا ثقافية.

\*\*\*

تزداد نازك نزقاً وهي تتمسك بالجذوة الباقية من أنوثتها،  
وتحاول أن تحاصرني بجنون. صارت أكثر اهتماماً بنفسها  
ومظهرها؛ كحل وصبغة شعر وعطر، وملابس أكثر نظافة وأناقة.  
حتى طريقة الكلام اختلفت، تبالغ الآن في الليونة والدلال.  
ينفرط الكلام علي شفثها السفلي قبل أن يمسه سمعك، وتفصل بين

الحروف زفرات خفض ولين مُغوية، يبدو صوتها أحياناً كأنه فحيح  
أفعي: إيه.. أوه.. آه.."

أظن أنها تحاول أن تكون أكثر مهارة في الشوط الأخير من  
لعبة شبابها، لكنني أدرك أنها ستظل محكومة بنفس البرنامج الذي  
تعوّدت عليه وإن اختلفت طريقة الأداء؛ تُقبل عليك من أجل  
مصالحها، وتحتشد بكل مغناطيسيتها لتجذبك إليها، وفجأة تدير  
ظهرها بفتور وتسحب كل مغناطيسيتها، تتركك تسقط في هاوية  
الحيرة دون أن تعرف ماذا جري.

أتعجب لامرأة تخطت الأربعين؛ كيف يمكن أن تثق إلي هذا  
الحد بقدرتها علي أن تصعق رجلاً؟!.. تلك أوهام نازك، وأظن أنها  
تراهن علي مهارات اكتسبتها من علاقاتها الواسعة بالرجال.  
أتعجب؛ كيف لا تدرك حتي الآن أنني عجيبة أخري غير  
الحاج حسين.

كانت تفسر اهتمامها بنفسها بأن البنت كبرت ولا بد أن يكون  
مظهرها كأم مشرقاً، وتقول:

— بعد سنة ستدخل نور الجامعة، وأصير أنا "أم الأستاذة".  
لا أعرف كثيراً عن تفاصيل ذلك الوهم الذي تطلق عليه اسم  
"نور"، لم أر البنت، ولا أعرف عنوان مسكنها حتي ذلك الوقت.  
هي كانت حريصة علي هذا الغموض، وأنا لم أفلح في

استدراج الحاج حسين إلي أي كلام في الموضوع، كان يبدو راغباً  
في نسيان الأمر كله، ما يخصه وما لا يخصه.

\*\*\*

عموماً كان الحاج أكثر صمتاً وحزناً في الفترة الأخيرة،  
ويتشغل عن كلامي أحياناً بفحص أحجاره الكريمة بالعدسات  
المكبرة.

يطرق طويلاً حين أحدثه عن نازك، ثم يرفع عينيه ويحدق في  
وجهي صامتاً، كأنه يتهمني بشئ لا يريد أن يفصح عنه. أظن أنه  
يحملني مسئولية ابتعادها عنه.

أستطيع أن أتفهم هواجسه وأحزانه، لكني لا أقدر أن أفعل شيئاً  
من أجله.

الأحظ أن تجارته تتدهور بعد أن فقد تلك الجاذبية التي كانت  
تجعله قادراً علي اصطياد الزبائن. نقشت الشيخوخة أقواس وجهه  
بتجاعيد متراكبة، جعلته يبدو واجماً أغلب الوقت.

\*\*\*

زادت أحواله سوءاً مع كساد الموسم السياحي.  
طال الكساد الجميع، لكن تأثيره علي الحاج حسين وأحجاره  
الكريمة كان أقسى.  
خفت الحركة في الخان بعد الانفجار الذي جري قرب المتحف

المصري وقتل تسعة من السياح، وأحداث العنف التي وقعت في الأقصر ومات فيها ثمانية وخمسون سائحاً.

كان المناخ ينذر بمزيد من العنف، فهرب السياح، وكسدت التجارة في الخان.

نصحت الحاج حسين أن يعتكف في منزله حتي تهدأ الأمور وتتشط السياحة مرة أخرى. لكنه استهان بكلامي، وقال إنه لا يستطيع أن يبعد يوماً واحداً عن الخان الذي ترفرف فيه أرواح أجداده. ووعظني بلهجة قاسية:

- المسألة ليست مجرد مكسب أو خسارة، والدنيا ليست مجرد فلوس يا حبيب أفندي.

ونفخ في وجهي:

- أحياناً تكون الفلوس لعنة علي صاحبها.

\*\*\*

حكي بهذه المناسبة عن رجل تمني أن يتحول كل شيء يلمسه إلي ذهب، ورفع الملاك طلبه إلي ربه، فقال له: "أنصفت عبدي لكنه ظلم نفسه وجلب عليها اللعنة، انزل فحقق دعاءه، واتركه لحاله الذي تمنأه لنفسه".

حلت بركة الذهب بيد الرجل، وكان أول شيء يلمسه هو جسمه؛ رجله، صدره، رأسه. كل لمسة تحولّ عضواً من جسمه

إلى ذهب، حتى لم يبق لحما حيا إلا العين واللسان واليد ذات اللمسة  
الساحرة. أدرك أنها لعنة.

كان الناس يحسدون غناه وذهبه، لكنهم يحذرون الاقتراب منه.  
يتجنبون ملامسته، ويفرّون من أمامه. وهو واقف في مكانه مثل  
لعبة معدنية عملاقة، ينظر بعينه حال غيره، ويتحسر بلسانه علي  
حاله، ويشير بيده الحيّة في كل الاتجاهات.

فهمت؛ كان حسين يلمزني بالكلام. وكان ذلك آخر كلام سمعته  
منه.

\*\*\*

رفض ووعظ وقال ما قال، لكنه غاب في النهاية عن الخان.

غاب الحاج حسين عن دكانه طويلا، وعرفت أنه أصيب  
بالزهايمر؛ نسي كل شيء حتي الاسم؛ المفتاح.  
زرتَه في بيته، ووجدته جالسا بين زوجته الصماء والعمياء،  
ومعهم عجوز من أقاربه، يرعاهم، ويدبّر أمورهم.  
رَبَّتْ كتفه، وقلت له:

— أنا حبيب الله.

دارت تروس ذاكرته علي الفاضي، وعادت بأصوات غريبة،  
أصوات بلا معني، كلام بدون كلام، صمت.  
قَبَلت جبينه وانسحبت، تركته في صمته بين الصماء والعمياء.

\*\*\*

أن تكون بلا ذاكرة فذلك يعني أنك غير موجود تقريبا.  
أنتذكر اجتهادات مدرسية في تعريف الانسان؛ حيوان ناطق،  
حيوان اجتماعي. أظن أن الأكثر حسما للتعريف هو الذاكرة؛  
الانسان حيوان ذو ذاكرة.

هل يعني ذلك شيئا جديا؟



الذاكرة، ذلك الاجهاد الساطع، تعني أنك لاتزال موجودا،  
لاتزال حيا. عندما تتطفئ ذاكرتك تتلاشي معها، وعندما يصل  
الامر إلي درجة نسيان الاسم تكون قد وصلت إلي أخرج نقطة؛  
عدت إلي الحيوان مرة أخرى. يبقى أن ينطفئ جسدك، ينسي حتي  
شفرته الداخلية، شفرة الطبيعة؛ يموت.

أغمض عينيك وحاول أن تتأمل نفسك بلا اسم، أن تنظر هوة  
النسيان. حاول مرة؛ الهوة.

\*\*\*

حزنت نازك لمرض الحاج حسين، لكنها لم تحمّل نفسها أي  
مسئولية، وحصرت فهمها للأمر في إطار "المكتوب":  
— كل شيء مكتوب من أول الدنيا، والأمر نافذ علي الجميع من  
إنسان وطير وشجر وحيوان.

غسلت يديها من دم الحاج حسين، وقالت أنها ابتعدت عنه بعد  
أن قرأت في خطوط كفه علامات ما جري له. وصارحتني  
بحيرتها:

— أقول الكلام بلساني والناس تصدق، لا أعرف وقتها هل ما  
أقوله حق أم فلتات لسان، لكن ما أقوله يصدق دائما، تدهشني  
نفسي.

أحذرُ من نازك دائما، لكنني أفكر في كلامها أحيانا. أستعين

بمعلوماتي في علوم الطبيعة والفلك والبيولوجيا وغيرها في محاولة  
فهم تلك القدرية الصارمة التي تحكم المصائر.

\*\*\*

قالت ما قالت، لكنها ظلت حزينة علي حسين.

زارته معي مرة، وتحسّرت علي حاله:

— الشريط انمسح، الملائكة مسحوه بأمر ربه، وليس بيدنا شيء  
نفعله من أجله.

عندما حاولتُ أن أذكره باسمائنا نبهتني بتلقائيةٍ إلي أن ذلك لا

يفيد:

— الآن هو في دنيا غير الدنيا، له اسم غير "حسين" ولنا في

دنياه أسماء أخرى، ربّه أعلم بحاله.

وفاجأتني بكلام غريب:

— دودة التوت تموت في شرنقة حريها، وبعدها تموت تعود

وتحيا فرائشة، ولا يعلم ما في الكتاب إلا رب الأرباب.



أزعجتني أحلامي في تلك الفترة، كانت قليلة جدا لكنها مفزعة.  
تطفو علي سطحها تلك الذكريات التي كانت تراودني دائما بشكل  
غامض. الآن أراها وأحسها بوضوح؛ رائحة الحريق، والعجوز ذو  
العينين الخضراوتين.

تصاحبني فور يقظتي معرفة لا أستطيع أن أعبر عنها، ولا  
أدري من أين تأتي، لكنها تفسر لي ما أري، في الحلم طبعاً.  
الرجل الذي أتذكره في باطن أحلامي هو أنا، أصحو متأكدا  
من ذلك.

أصحوا محملا بكل المشاعر التي يحملها رجل في مثل هذا  
الوضع؛ جالس علي كرسي بالمقلوب، وشاخص بلا حركة. جسمه  
يتشقق كالخار، وتتصاعد منه روائح حريق.

هناك مشاعر أخري يحملها الرجل الصامت، تأتي من عمق  
حياته. كانت المعرفة التي تصاحبني تؤكد لي أنني عشت هذا  
الموقف، أصحو فزعاً، أتحسس نفسي، وأتمسك باسمي؛ "الأفندي".

\*\*\*

"الأفندي"؛ هذا أنا بالضبط.

أعطيت نفس لاسم اخترعته المصادفة، كسوته لحمي ونفثت فيه أنفاس حياتي ليصبح شيئاً مميزاً. اسم وهمي ؛ لا وجود له في سجلات الأسرة، ولا في عقود الأملاك والشركات، لكنه يفرض وجوده بقوة، ويحظي بأرفع الألقاب؛ "البك" و"الباشا".

أظن أنني أشبه حمروش من زاوية ما؛ هو أيضاً كان وهما علي الأرجح، لا وجود لاسمه في شهادة ميلادي، ولا في لوحة الأسماء علي مدفن العائلة. لا يعرف أحد في أي زمن عاش، حتي عمي لا يعرف.

لا أفكر في التخلي عن "الأفندي" أبداً، صنعت هذا الاسم بجهدٍ وتعبي، ولا يناسبني أي اسم أو لقب آخر، ماذا يعني لقب "الذكر" بالنسبة لي مثلاً؟!

أتمسك بنفسِي، وأحنّ إلي كل التفاصيل التي رافقت بناء اسمي، بل مازلت احتفظ بالاسم والمهنة في بطاقة التعريف كما كتبتُه أول مرة؛ "حبيب الله الأفندي.. مرشد سياحي".

أحنّ أحياناً إلي تلك الأشغال الصغيرة التي بدأت بها مسيرتي في الخان، أفعل ذلك في نزوات متباعدة، فأطارد السياح في المطاعم والفنادق متودداً:

— كان أي هلب يو؟

\*\*\*

آخر مرة فعلت فيها ذلك أخرجتني السائحة، وردت علي  
سؤالي بحسم بارد:

– ايفن إن يور كانتري؛ آي كان هلب يو، يو كان نوت.  
وكررتها بالعربية:

– حتي في بلدك، أنا التي أستطيع أن أساعدك، أما أنت فلا.  
أديت لها التحية العسكرية، وسألتها:  
– من أي بلاد أنت؟

لم ترد، نظرت إلي بازدراء، وابتعدت.

\*\*\*

يبدو أن الدنيا تتغير حولنا دون أن ننتبه لذلك.

\*\*\*

نبتني فايز إلي أن كل شئ يتغير حتي نحن، وأنني لم أعد شابا  
قادرا علي إغواء السياح، والنساء خاصة. قال :

– أنت الآن كرش وشعر أبيض، ماذا تفعل بك المرأة؟!

تبتت إلي أنني أقرب من الخمسين وأن القرن الذي ولدت فيه  
يلفظ أنفاسه، وسيحتلون بدفنه في حفل موسيقي مبهر تحت سفح  
الهرم بعد عدة شهور.

أثار ذلك تأملاتي، وأسلمني إلي حالة من الشجن دفعتني لكتابة

مذكراتي.

\*\*\*

جلست إلي الكمبيوتر ساعات طوال.

\*\*\*

كان بعض ما كتبت محرراً جداً، لذلك لم أعرض أوراق علي فايز، ولا علي "موزة وأخواتها". اكتفيت بتأمل نفسي علي الورق، وكان الأمر معذباً.

عموماً كان فايز مشغولاً بالدعاية لفيلمنا الثاني الذي تأخر عرضه. وظل في الصناديق أكثر من عامين في انتظار الدور. لم يستمر الفيلم في دور العرض الكبري طويلاً. سقط جماهيرياً وفنياً، وانتقل بسرعة إلي سينمات الدرجة الثانية.

\*\*\*

أرهقنا فايز بتكاليف الدعاية، ولم نسترد مصاريفنا بالكامل، لا أنا ولا خورشيد، ولا موزة التي شاركتنا في الإنتاج.

استوحى فايز قصة الفيلم من حكايات جدي حمروش؛ وكانت حول عاشق يبحث عن امرأة التقاها صدفة في شبابه في أحد الملاهي، واكتشف بعد فترة أنها ملأت كل أحلامه، وعندما بدأ البحث عنها اختفت تماماً.

في الفيلم رحلة بحث طويلة عن المحبوبة، وكلما اقترب

العاشق منها يكتشف أنها امرأة أخرى غير التي يبحث عنها. تكررت المحاولة، والتقي الحبيبان في نهاية الفيلم ولكن بعد أن أصبحا عجوزين محطمين لا يقدران علي شيء.

لم تقلح دعاية فايز في وقف الهجوم علي الفيلم، وكتب أحد النقاد مقالا ناريا بعنوان: الحب المستحيل.. وصفة جديدة للفشل". أجهز المقال علي الفيلم، وضيّع أي فرصة لتقليل الخسائر.

حمل خورشيد المسؤولية لفايز، وقال إنه شحن الفيلم بأفكار لا يستوعبها المتفرج العادي، الذي يبحث في السينما عن ضحكة تبدد همّه. لكن موزة رأت أن العيب الأساسي يكمن في مشاهد الخمرات والملاهي التي أسرف فيها الفيلم، وصرفت ذهن المشاهد عن المضمون العميق.

دافع فايز عن نفسه بإلحاح، وحاول أن يقنعنا بأن فكرة الفيلم أعلي من إدراك الصحافة الفنية، وأن مقص الرقابة أربك السياق، والنقاد تجاهلوا المغزي السياسي تجنباً للمتاعب، والمخرج الشاب الذي اختاره خورشيد أضعف من أن يتعامل مع فكرة بهذا المستوي الراقي. وقال :

– الفيلمُ يعبّر عن أزمّتنا جميعاً، ففي أوقات ما تصبح الأوهام أقوى من الحقائق، وتصبح الأشباح أكثر تأثيراً في الواقع من الأحياء، وهذا ما نعيشه الآن.



\*\*\*

لا أهتم بالنقاش كثيرا، المهم النتيجة. أفلقتي أن هذه أول مرة  
أخسر فيها، انزعجت جدا وتشاءمت؛ أخشي أن تكون مجرد بداية.

زاد انزعاجي مع انقطاع نازك المتكرر .  
أعرف أنها مشغولة بزبائننا؛ انفتحت أبواب السعد لها،  
وأصبحت قارئة كف معروفة في الوسط الفني .  
بدأت نشاطها في جلسة للإعداد للفيلم في بيت موزة. فرضت  
نفسها علي الجميع بمهارة، وحوّلت الجلسة إلي حلقة لقراءة الكف  
والفجان وكتابة العناوين وأرقام التليفونات .  
الآن تنتظر مكالمات الزبائن علي الموبايل الذي أهدته لها  
موزة؛ طلبات لقراءة البخت، وربما لأغراض أخرى، لا أستبعد  
شيئاً .

طال غيابها فاتصلتُ بها ذات ليلة، كانت تلك أول مرة. فرِعتُ  
من نومها، فاعتذرتُ لها:  
— لم أتوقع أن تكوني نائمة .  
— لو طلبتني وأنا في الموت لقمتم لك، فكيف لا أقوم لك من

النوم!؟

وسألتني:

— هل أنتَ بخير؟

— بخير، أردت فقط أن أسألك عن الحاج حسين، أتجنب زيارته منذ شهور طويلة لأن حاله يؤلمني كثيراً، ويثير في نفسي أفكاراً سوداء.

— لم أره منذ زرناه سوياً، ثم إنك الأقرب إليه، ولديك سيارة. وعاتبتي:

— ظننتك ستسأل عني.

قالت إنها سعيدة لأن هذه أول مكالمة تتلقاها مني، وشجعتني:  
— نورت الموبايل يا وعدي، ولو أردتني في أي وقت رن لي رنةً.

\*\*\*

ظهرت في الخان بعد ذلك بشهر، زارتنني بسرعة في مكتب الصرافة لتبديل مائة دولار، وأخبرتني أنها مشغولة جداً بابنتها:  
— نالت الشهادة العالية، وستعمل مدرّسة في حضّانة أطفال، ربنا يحرسها.

بدت مبتهجة وجذابة، رغم أن الخمسين عاماً التي عاشتها كانت تعيد تشكيل قصاقيص ملامحها علي نحو مختلف، وتخدم رائحة شهوتها الفواحة. تكسو وجهها الآن لمحة غامضة مثل ساحرة، ويزداد صوتها عمقا كأنه يوغل في قديم الرعشة الأولى.

عاتبتّها علي غيابها الطويل، وصدمني جوابها:  
— من منا يسأل عن الآخر؟.. أنت مشغول بنفسك، وعندك ما  
يكفيك، وحوالك من يسأل عنك ويسعي إليك دائماً. أما أنا فوحيدة،  
انخلعت أظافري وأنا أتسلق صخور الأيام لأرّبي ابنتي.  
— لكنك لا تسألين حتي عن الحاج حسين.  
— وبماذا يفيد السؤال بعد أن نفذ فيه أمر ربّه؟  
كانت تتصرف دائماً بهذه القسوة، لكن الجديد في الأمر الآن  
أنها تصارحني بلا خجل.

\*\*\*

أظن أنها أيضاً كانت ترائي علي نحو مختلف.

\*\*\*

أفكر في تلك التغيرات المحتومة التي تطرأ علي الجسد، أفهم  
المسألة علمياً، لكن إحساسي بها يربكني. أتساءل عما إذا كان هناك  
شئ يمكن أن يتمسك به الإنسان حتي النهاية. أمضي أحياناً نحو  
السؤال الأصعب؛ أي نهاية؟

طرحت أسئلتني الصعبة علي فايز وموزة.

كان جواب فايز مُضجراً. عنده معلومات كثيرة، لكنه لا يملك  
معرفة يطمئن إليها. زَحَمَ رأسي بأسماء ونظريات وأديان وتأملات  
كثيرة من الشرق والغرب، ثم نفّض يديه من كل ما قال، وأعادني

إلي نقطة الصفر:

— الكلام كثير، وكله مجرد كلام.

وذكرني بدراستنا الجامعية:

— لا تنس أننا درسنا سويا في كلية العلوم، وعلينا ألا نؤمن إلا

بما يمكن أن يخضع للتجربة والاختبار.

يتمسك فايز بعدميته كأنها اكتشاف مبهز، ويزداد أسي حين

يسكر.

أظن أنني أنطلق من نقطة أفضل منه، وهي أن المادة لا تقني،

وأنا لا يمكن أن نضيع سدي، وسنظل مندمجين في الكون بشكل أو

بآخر. لكن السؤال الصعب الذي يظل معلقا بلا إجابة هو: هل

يستطيع وعينا أن يحدد المصائر؟.. أن يتحكم بها؟

نبهتينا موزة إلي أن الإجابة قد تكون عند المرأة العجرية التي

تحدث دائما عن "المكتوب" وتستطيع أن تقرأه أحيانا، وقالت

بحماس:

— لتواضع ونسأل نازك، ولنفكر في كلامها بجديّة، فربما

وجدنا الإجابة.

فكرة شاعرية خرقاء، لكنني لم أرفضها، بل تحمست لها

لأسباب تخصني. كنت أريد أن أري نازك، أن أستدرجها دون أن

أفصح سعبي لذلك. فوّضت موزة في ترتيب اللقاء، واشترطت أن

يقتصر علينا نحن الأربعة.

\*\*\*

أعددتنا نازك للحديث في الموضوع بفقرة طويلة من قراءة الكف والفنجان، وتولي فايز بنفسه لف السجائر لها لتسخين دماغها. قرأتُ أكفَّ الجميع لكنها توقفت عندي، رفضت يدي الممدودة، وذكّرتني بكلام قديم:

— كما أخبرتك من قبل؛ حزنك أطول من عمرك. كلام مكتوب وواضح علي الجبين، والآن أن الأوان، خوفي عليك. نبهتها إلي أن كلامها يعني أنها تتمني لي السوء، فدمعت عيناها وهزت رأسها بأسى:

— علي جثتي يا قلبي؛ وهل أتمني السوء لنفسي؟  
لم أفهم معني جملتها الأخيرة، ولا مغزي هزّات رأسها. لم استطع أن أخمّن ماذا كانت تنفي بالضبط.  
هي كررت الكلام:

— الآن أن الأوان؛ مكتوب.  
تدخلت موزة لإعادة الحديث إلي مساره المرسوم:  
— ماهو المكتوب يا نازك؟  
— هو ما لايد أن يحدث.  
— ومن كتبه؟

- كتبه من كتب الورق من أول صفحة.
- ومن يستطيع أن يقرأه؟
- هو في قلب كل حي، وفي خياله أيضا؛ خياله القديم المولود به من بطن أمه، وإذا صدّق الإنسان خيالاته يقرأها ويعقلها.
- هل أستطيع أن أقرأ المكتوب مثلك؟
- إن صدقت نفسك.
- وهل تصدقين أنت نفسك؟
- كيف لا أصدقها، وهي طول العمر راضية بالمكتوب.
- هلّلت موزة للكلام، وقالت إنه لا يخلو من أفكار عميقة.
- واستقبله فايز ببرود، ووصفه بأنه شرح شعبيّ فج لفكرة مطروحة في الكتب بشكل أكثر عمقا، وقال:
- فكرة من بين آلاف الأفكار، وموجودة من قديم الزمان.

\*\*\*

أنا كنت مشغولا بالتفكير في تلك الفرصة النادرة؛ الجسد.  
كنت أحاول أن أنبض.

\*\*\*

الآن يخذلني نبضي.

حرصت علي أن تصحبي نازك إلي مسكني في نهاية الجلسة،  
وسألتها في الطريق:

— لماذا لا تزوريني الآن كثيرًا؟!

— البنت كبرت وصارت مدرّسة، الناس يسمونها "مس نور"،  
وأي كلام يمسنني الآن يجرحها.

— لكنك مازلت تدخنين الحشيش، وربما تمارسين أشياء أخرى  
لا تشرفّ البنت.

— لا تذهب بأفكارك بعيدا، الشقاوة كانت زمان. كنت مكسورة  
الجناح وأسائر الجميع لأربي ابنتي بسلام، أما الحشيش فهو الوسيلة  
الوحيدة التي أعرفها لنسيان القسوة.

— ألم يساعدك أبوها أبدا؟

أشاحت بوجهها عن السؤال، وشتمت بصوت خفيض:

— الواطي.

— من الضروري أن تخبريه.

— وما فائدة ذلك الآن، البنت كبرت ووصلت إلي بر الأمان.

هل أقدمها له هدية علي طبق من ذهب بعد أن أهلكت نفسي من  
أجلها؟!



— ألا يعرف أحد من أبوها؟

— الوحيد هو الحاج حسين، عرف كل شيء دون أن أخبره،  
ولا أدري كيف.

— كنت أظن أنني أقرب إليك من حسين.

— كنت دائماً أقرب إنسان إلي قلبي، لكنك لم تفهم أبدا ولم  
تصدق.

\*\*\*

أفكر أحيانا في أنها لو كانت مختلفة قليلا لتصرّفتُ تجاهها منذ  
البداية علي نحو آخر، لكنني كنت أراها دائما امرأة مبتذلة، ماهرة  
وقاسية، وتدفع أي ثمن من أجل مصالحها. أظن أن هذا مازال  
رأبي.

\*\*\*

دخلت نازك كثيرا تلك الليلة.

سبح الدخان في فضاء الغرفة، وانعقدت حلقاته الزرقاء قرب  
هالة القديسين في شباكي المستدير. نالني شيء من الخدر، لكنني لم  
أغامر بفتح الشباك خشية أن تتسرب الرائحة الكثيفة إلي أنوف  
الجيران.

حاولت أن أستجمع نبضي، لكن شيئاً ما كان يربكني.  
احتضنتها طويلا، وهي اكتفت بذلك. أدركت بعد فترة أنها تبكي،

سألتها عما يحزنها، فجاوبتني بأهة طويلة:

— أه يا وعدي؛ المكتوبُ غلبَ المطلوبَ.

مسحتُ دموعها عن خدي، وطلبت منها أن تحكي لي شيئاً من حكاياتها القديمة. قالت في البداية إنها حكّت كل ما لديها ولم يعد عندها مزيد، لكنها بدأت تعيد الحكايات بعد قليل، لم يكن هناك شيء آخر يمكن أن يشغلنا عن الكلام.

ظللت طويلاً أتأمل قصاقيص ملامحها وهي تتشكل بأكثر من وجه في الضوء الشحيح، رأيت وجوها كثيرة في تبدلات غامضة ومخيفة.

\*\*\*

كانت نازك تحكي، وأنا أحاول أن أتذكر معها:

— في أول الأيام صاد "الواطي" "ستنا". سلخ جلدها حيّة وفرشاه علي الكرسي. قعد عليه وسط الناس والحراس واستكبر. في اليوم الثاني قامت ستنا من موتها، دبت حلاوة الروح في جلدها، التصقت في جسمه بنارها. ظل هو مربوطاً بالكرسي، وهي تلتسهه بنارها.

الليل الثالث كان ليلة الحساب.

مر الملائكة علي القصر، وبينهما "ناكر" و"نكير". جلسوا علي قنينة يستريحون من تعب النهار، وكله كان بالأمر.

هبت زعابيب أمشير، فقال ناكر لنكير تعال ننزل تحت،  
ونتسلي بالفرجة داخل القصر حتي تهدأ الريح، فواصل الطيران  
والتسبيح.

وفي الديوان رأي الملاك "الواطي" جالسا علي الكرسي وهو  
يرتجف بين حالين؛ تلج نفسه، ونار الكرسي المفروش بجلد "ستنا"،  
فتحيرا في أمره.

قال ملاك لملاك:

— ما ذنبه؟

— حرمة ربّه من نعمة تذوق الجمال، فلما رآه كفر به وتجبر  
عليه، لذا حق عليه الغضب والعقاب.

— علي أي ذنب نعاقبه، وهو لم يحرم نفسه بنفسه، وإنما الأمر  
لربّه.

كان الملاك من أهل الخصام، فطال بينهما الكلام والجدال،  
ملاك يضحك عليه، وملاك يبكي لحاله. وعلا بينهما الضحك  
والبكاء حتي سمعهما إخوانهم الجالسون علي القبة، فنزلوا وقالوا  
لهما:

— لا يضبط الحساب إلا ربّ الأرباب، فاصعدا اليه واستقتياه  
في أمره.

خطفه الملاك من بين حراسه وناسه. حملاه بكرسيه، وطارا

إلي فوق. وهناك وضعاه علي المفترق ما بين جنته وناره، ثم دخلا  
يعرضان أمره علي ربه. تركاه ونسياه، كأنهما نسياه، وكلّه كان  
بالأمر.

هو لايزال في مكانه، وهما في جدالهما إلي اليوم.



طمأنتني نازك بمكالمة قصيرة علي وصولها للبيت بسلام.  
كنت متعبا ومشوشا بتأثير المخدر الذي نفثته أثناء وجودها في  
مسكني، لكنني واصلت السهر حتي قرب الفجر، كان لدي ما أسجله  
علي الكمبيوتر .

\*\*\*

أيقظني رنين الموبايل قرب التاسعة صباحاً، تجاهلته مرتين،  
واضطرت للرد في الثالثة:

— ماذا تريد يا نازك!؟

— نازك ماتت.

هو رقم نازك وصوتها بالضبط. غاظتني الدعابة السخيفة،  
فطلبت منها أن تضع رأسها تحت صنوبر ماء لتفريق من خدرها،  
ونهرتها:

— ليس هذا وقت هزار يا نازك. سهرت حتي الصباح، وأريد

أن أنام الآن.

أنهيت المكالمة، لكن الموبايل عاود الرنين، وبادرني الصوت:

— أنا نور ابنة نازك، وأمي ماتت.  
كان صوت الباكية جادا، لكنني لم أصدق.  
— ماذا تريدان الآن؟  
— وجدت رقمك علي الموبايل، كان آخر مكالمة لها. الحقنا يا  
أنكل أرجوك، نحتاج مساعدتك.  
تنبّهت إلي أن حولها أصوات لغط وصراخ، سألتها:  
— من أنت؟  
— اسمي نور، أنا ابنة نازك.

\*\*\*

كتبتُ العنوان وذهبتُ بسرعة.  
عرفت أن رجال النيابة والشرطة في غرفتها، كانوا يرسمون  
دائرة بالطباشير حول الجثة، ويعاينون المكان.  
فضّلت الانتظار في مقهى قريب. أخبرني الجيران أن طبيب  
الصحة أبلغ النيابة بوجود شبيهة جنائية في الوفاة بعد أن لاحظ  
زُرقة الجلد أعلي منطقة الصدر والوجه، ورجح بعضهم احتمال  
الانتحار.

\*\*\*

حملوا الجثة إلي المشرحة، وتبعتها بسيارتي ومعني نور. هي  
أصرت علي ذلك، وكانت فرصة لأسألها:

— ماذا جري؟

— كانت أُمي شاردة ومتعبة حين عادت قبل منتصف الليل. أجرت مكالمة تليفونية قصيرة، ونامت علي الفور. أيقظتني مرتين لأسقيها عصير ليمون، كانت باردة الأطراف وتتنفس بصعوبة. وجدتها في الصباح مفتوحة العينين لكن بدون حركة، ماتت. — هل تظنين أنها أنتحرت، تناولت سما أو جرعة زائدة من دواء مثلاً؟

— ولماذا تنتحري؟.. لم تكن أُمي من هذا النوع بل كانت قوية دائماً، ولم تكن هناك مشاكل تضايقها في الفترة الأخيرة. كانت دموع نور تنحدر في صمت طول الطريق. لاحظت أنها تشبه أُمها تماماً، نفس الصوت والوجه ونبوءات الجسم، لكن القوام أكثر رشاقة، وإيماءات يديها أكثر رقة. نفس الفتنة المتقلبة التي ألفتها طويلاً، لكنها هذه المرة بإيقاع هادئ حزين. لولا أنني رأيت جثة نازك، لظننت أنها هي بعد أن أجرت عملية تجميل.

\*\*\*

كنت أظن أن الأمر سيتم بسرعة، وأنا سندفنها صباح اليوم التالي علي أبعاد تقدير، لكنها ظلت في ثلاجة المشرحة ليلتين. لجأت إلي فايز في اليوم الثالث لحل الأمور الروتينية المعلقة



مع النيابة والسلطات الصحية. كان يسعد كثيرا باستعراض علاقاته ونفوذته، وكنت من جانبي حريصا علي عدم الزج باسمي في المسائل الشائكة.

تجمعت قلة من النساء في انتظار نتيجة مساعدتنا بين المشرحة وسراي النيابة. كان العدد قليلا؛ ابنتها وثلاث عجائز. واضح أن أغلب الجارات فضلن الابتعاد عن مسرح الأحداث، كان الاشتباه الجنائي أمرا مقلقا للجميع.

أنهي تقرير الطبيب الشرعي حالة الانتظار؛ واستند إلي تقرير المعمل الجنائي في أن الوفاة حدثت نتيجة جرعة زائدة من الحشيش عن طريق التدخين، أدت إلي هبوط حاد في الدورة الدموية. ناولني فايز تصريح الدفن، وأخبرني أن الإجراءات انتهت تقريبا، ولم يتبق إلا تحقيق روتيني في القسم لإغلاق ملف القضية، وقال لي:

— سامحني؛ لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة أبعد من ذلك، فعلت كل ما أقدر عليه، ولا أحتمل طقوس الدفن.  
أنا أيضا انصرفت، ناولت التصريح لابنتها في العربة السوداء وانصرفت. دائما أتجنب الذهاب إلي مقابر الصدقة.

لا أخفي أنني أحسست بالأسى لفقد نازك، وأن رحيلها المفاجئ  
بعد موت وداد ومرض الحاج حسين كان مصدراً لتأملات مؤرقة.  
الاحظ أن أفكاري تتغير كثيراً، وربما كان ذلك بتأثير العمر.  
مرّت السنون بسرعة؛ أغمضت عينيّ وفتحتهما فوجدتني تجاوزت  
الخمسين.

هل كنت أحبها بشكل ما؟..ربما، لكن حبي لها كان علي الدوام  
مظلاً بكل ألوان النسيان. أجلس صامتاً علي المقهي، أتسمع بصمة  
صوتها كما يتشمم الكلب بصمة الرائحة. أصغي لأذني مثل مذياع  
قديم تتداخل فيه الأصوات، وأدير مؤشرات ذاكرتي في كل  
الاتجاهات باحثاً عن نداء يخصني. أتوهم الصوت أحيانا في أخلاط  
المحطات البعيدة، ثم يتبدد في تشابكات ضوضاء المقهي والشارع:  
— يا وعدي.. يا وعدي.

أتأمل أحيانا بصمة إصبعها علي ورقة الإيصال الذي مازلت  
أحتفظ به، وأغوص في دواماتها الحزونية. يأتيني صوتها  
المستحيل من عمق الدوامة كأنه يأتي من عمق الانفجار الأول،

النبض الأول:

— ياوعدي..

كانت دائما تعتبرني وعدها، فهل خذلتها؟.. هل كنت أستطيع  
أن أتقبل الاسم الذي خصتني به، وأن أثق بامرأة بمثل ذلك  
الابتذال؛ امرأة تقول إنها تربت علي ألا تمنع نفسها عن الرجال؟..  
أظن أنني تصرفت دائما كما ينبغي.

\*\*\*

أحاول أن أتمسك بنفسي مرّة أخرى، أن أتذوق طعما جديدا  
يشغلني عن أفكارِي.

\*\*\*

كانت نور مذاقا مدهشا. أشم في صباحها رائحة شبابي، أستعيد  
ذلك الوهج الأول، القلق الأول.

هي نازك نفسها بلامحها ورائحة شهوتها الفوّاحة، لكنها نازك  
جديدة، بكر لم تلوثها الحياة بعد، وأستطيع أن أطمئن إليها. عليّ أن  
أغامر بهذا التوهم، وأظن أن ذلك لا ينطوي علي أنانية وإنما علي  
قدر من التنازل، وربما المغامرة.

مددتُ لها يدي. زرتها في البيت لأعزيها، أعطيتها أرقام  
تليفوناتي، وعرضت عليها المساعدة:

— لا تترددي، يمكنك أن تطلبي أي شيء، وفي أي وقت.

— لم تحدثني أمي عنك أبدا.  
— كنا جيرانا فترة الطفولة، واستمر الود القديم حتي آخر يوم.  
— وهل كنت تعرف أبي؟  
— لا أتذكر أنني عرفته أو رأيته، كنت وقتها مشغولا بأعمالي،  
وأظن أنه مات سريعا.  
كانت فخورة بسيارتي التي تسد مدخل الحارة، تدلّت من  
الشباك أكثر من مرّة، لتبعد الأطفال الذين يركبون مؤخرتها.

\*\*\*

اتصلت بي لتشكرني، ودعوته للعشاء في أحد مطاعم الخان.  
كانت لاتزال في سواد الحداد. اشتريت لها بعض الأغراض  
المنزلية، وأوصلتها إلي مسكنها. قبلتُ خدي في عتمة السلم،  
وشممتُ في أنفاسها نفس الرائحة القديمة؛ الرائحة التي تتبدد الآن  
في عتمة القبر.

أظن أنها ورثت الكثير عن أمها. لاحظت ذلك في نظراتها  
ولمساتها وهزات جسمها.  
لم يكن لدي مبرر يمنعني عن أي شيء، هي كانت سعيدة  
بصحبتني، وأنا كنت سعيدا بها؛ نازك الجديدة.

\*\*\*

طلبت موزة مني أن أجهّز السيارة لنمضي يومين في الغردقة

بعيدا عن المناقشات وضجة الصحافة والفضائيات:

— لم أعد أتحمل مشاهد الموت والدمار في الفضائيات، ولا

أريد أن يداهمني التلفزيون بمشهد سقوط بغداد، أريد أن أبتعد.

صبحنا فايـز في الرحلة، كان متحفـظا في آرائه، لكنه كان

يتحدث عن احتمال أن يكون ما يحدث بداية تغيير شامل:

— .. منطقة جديدة، ومصر جديدة.

أنا كنت مشغولا طول الرحلة بنازك الجديدة؛ نور.

لم اتصل بنور خلال رحلة اليومين، وعندما عدت أخبرتها أنني كنت متوعكا قليلا، ومازلت راقدا بالبيت. أصرت علي زيارتي فحددت لها المكان:

– الباب الثاني علي يمين الدرب.

وهي حددت الموعد:

– بعد ساعة بالضبط.

\*\*\*

هي التي عرضت، وهي التي حددت الموعد؛ أهلا.

\*\*\*

جاءت نور قبل أن تنتهي الساعة. أعدتُ بعض العصائر والأطعمة الخفيفة، ثم بادرت بتنظيف الشقة. كان تطوعها بالخدمة يختصر مناورات كثيرة، ويعطيني وضعاً أفضل.

ساعدتها بتثبيت السلم النقال تحتها وهي تنفض غبار السقوف، وتعمّدت أن أحركها في أوضاع تجعلها متاحة للنظر. تشبّ فوق السلم وتنفض، فتترجرج مكامن أنوثتها، وأنا أسند وأنظر وألفح

ساقبها بأنفاسي.

طلبتُ مني أن أبتعد عن الغبار، ولمّا تمسكتُ بمساعدتها

نزلت. تلقيتها في حضني:

— لماذا لا تكملين نفض الغبار؟

— مكسوفة؛ جسمي يتكشّف.

تصنعتُ البراءة:

— لم يتكشف شيء.

— لا أقصد أنه يتعرّي، وإنما يتفصل.

حاولت أن أستبقها في حضني لكنها أفلتت بلطف. لا أظن أنه

كان صدوداً، ربما كانت خجلي أو حائرة، وربما هي المرة الأولى.

— أحبك يا نور.

— ماذا تريد مني؟

— أحبك.

— لكنك ثري جداً، وأنا صغيرة وفقيرة جداً، فماذا تريد مني؟

— وهل يمنعنا المال أو العمر عن المحبة؟

— لكن ما تعرضه الآن ليس هو الحب.

تراجعت قليلاً:

— اعتبريه عرضاً بالحب يا نور، فكري ولكن لا تضيّعي

الوقت، لدي المال الذي تحتاجينه، ولديك الشباب الذي أتمناه.

فكّري، وسأُتصل بك لأعرف رأيك.

\*\*\*

بعد يوم واحد نهشني القلق، لم أصل إلي هذه الدرجة من قبل. شاورتُ فايز في الأمر دون ذكر تفاصيل أو أسماء. لخصت له الحكاية في أنها بنت فقيرة وتصغرنى بثلاثين عاما تقريبا. وصارحته:

— أحبها بجنون.

— وماذا يمنعك عنها؟

— لا تبدو راغبة في مغامرة.

— غامر أنت وتزوجها شهرا أو عاما أو أي مدة تريدها، وعندما تزهد فيها طلقها. لديك مال يساعدك علي فعل كل ما تريد، وهي لن ترفض فلوسك أبدا، فلماذا تعذب نفسك؟! وشجّعتني:

— سأكون شاهد زواجك، لكن بشرط أن تصحبني في زيارة

لعمك. من يضمن أن يراك بعدها.

\*\*\*

صحبتنا موزة في زيارة عمي.

حين دخلنا علي عمي وجدناه متيقظا وجاهزا للكلام علي غير عادته، كان يدير الكرة الأرضية بهمة ويحكي فتفتت أنفاسه غبار



المكان في وجوهنا.

\*\*\*

كان عمي يحكي عن "وقفة الفجر" كأنه رأي كل شيء:  
— في آخر الأيام تاه جدنا حمروش، تاه حتي عن نفسه،  
وصار لا يعرف أهو ذكر أم أنثي. وضعفت عيناه فصار لا يعرف  
مَنْ حوله، وانحني ظهره، وصار متاحا لكل عابر سبيل. كان يجر  
نفسه جرا، وهو يقاب بصره الكليل في الوجوه التي تمر به،  
ويولول علي الطرقات:

— يا هي.. يا هو.. يا هي..

وكل ليل يطوف حول السور في انتظار الفجر، ويسبح:

— البحر واحد، والسماك ألوان.

زهق صبره، ولما زهق وقف "وقفة الفجر" التي يحكي عنها  
الناس.

وقف جدنا حمروش من أول الليل علي باب الصبح ينتظر.  
كانت ليلة صيف معتمة، لا قمر فيها ولا نجم ولا نسمة.  
وقف علي رجليه يتململ، يضع قدما ويرفع الأخرى وهو يدق  
باب الليل ويشكو حاله، عاتب وزاد في العتاب، ولما طلع الفجر  
أمسك بخناقه وقال له:

— يا فجر يا كذاب؛ يوم بعد يوم توعد، وتسناني. يا فجر هات

العمر من تاني، ووف الوعد يا كذاب ولو مرّة.

\*\*\*

كانت موزة مبهورة بالكلام، وأقسم فايز أنه يكاد أن يكون شعرا. أنا كنت ساهما، أفكر في اتجاه آخر يخصني.



اتصلت بنور وطلبت أن أراها بشكل عاجل:  
— لديّ عرض يخص مستقبلك، ولا يناسبه الحديث بالتليفون.  
أريد أن ألقاك في أي مكان عام تختارينه لتسمعي مني. لك أن تقبلي  
أو ترفضني، ولن ألحّ عليك.

\*\*\*

خمنت حين رأيتها عن بعد أنها فهمت ما أريد، بل ووافقت  
أيضاً؛ كانت في كامل أناقتها وزينتها. ولاحظت بعد جلوسها أنها  
تلبس قلادة حجر القمر التي أخذتها نازك مني. لمست العقد  
بأطراف أصابعي، وسألتها:

— من أين أتيت به؟

— قدّمته أُمّي لي يوم تخرجي، وقالت إنه كان هديتها الوحيدة  
من أبي. سافر إليّ آخر الدنيا ليعمل ويشتريه من أجلها، وحين مات  
حفظته في علبة مبطنة بقطيفة حمراء، وأخفته عني إليّ يوم  
تخرجي.

— ألم تحدثك عني؟

— لم تحدثني أبدا عن رجل غير أبي.

— هل كانت تحبه؟

— بل تعبده، لكنها كانت تقول إنه ظلم نفسه.

— كيف؟

— كانت تقول إنه لم يفتن بما كتب له ربه، فضيَّع عمره طمعا

في أشياء لا تفيده. كانت تطلب له الرحمة دائما، وأحيانا تطلب من

ربه أن ينير طريقه. أسألها: "أي طريق وهو ميت يا أمي؟" فتقول

لي: "حتي في الآخرة يا نور هناك أكثر من طريق".

— وماذا كان اسمه؟

— "السيد سيد".

— أقصد اسمه الحقيقي.

— هذا اسمه الحقيقي المكتوب في شهادة ميلادي "السيد سيد"،

ليرحمه الله. لكن أمي أخبرتني أنها كانت تتاديه باسم آخر.

— ماهو؟

— "وعدي".

قلت مرة إن لكل حلم ذكريات تواكبه، وترقد في قاعه بشكل لا مرئي، ذكريات لا تتفصل عنه، تفسره وتبرره وتضعه في سياق مفهوم.

قلت ذلك، ولكنني لم أنتبه إلا في هذه اللحظة لحقيقة أخري أشد وضوحاً، وهي أن لكل واقع ذكريات تواكبه، ذكرياتنا. لا أقصد ذاكرة أمة ولا تاريخ شعب، ولا هذا الكلام الفارغ، وإنما أقصد ما يعنيني شخصياً، ذكرياتي أنا، حبيب الله الأفندي. هنا لا بد أن أعترف أنني رجل فقير، كسبت وامتلكت لكنني فقير؛ فقير بنفسي. نعم فقير بنفسي.

ماذا أملك من ذكريات؟ جدي حمروش الذكر، الذي بدد نفسه تائها في الشوارع يبحث عن وجه امرأة توهمتها أحلامه، امرأة لا وجود لها. أم عمي المخبول الذي لا يصلح إلا أن يكون لقطه عابرة علي أبواب أسواق شعبية في عصور قديمة.

من غيرهم؟.. أبي الحلاق، "سي كلام"، "سي مش عارف". بالمقص والمشط وخيوط النتف؟.. أم أمي سيدة الملابس الرثة

والتهدات المكتومة؟..

أتذكر الآن أنها كانت دائما في البيت بملابس رثة.  
حتى لقطة "ملاك هانم" الأنيقة تخبو في ذاكرتي، أفضل الآن  
أن تتمحي تماماً.

"ملاك هانم"؛ هل كان الطبيب ذو العيون الخضراء يسخر منا؟

\*\*\*

هل قلت الخضراء؟.. نعم الخضراء.

\*\*\*

ماذا يتبقي لي من نفسي؟.. نازك، نور. أفلام تافهة، وأصداء  
صوت قديم كان يطارد السياح في حواري الخان وعلي مقاهي  
وسط البلد:

— كان أي هلب يو؟

شباكّي أصبح هالة زجاجية متربة، فارغة من وجوه القديسين.  
حتي وجهي صرت أتقاده في المرايا، أتأمل فقط ربطة العنق  
ولمعة الحذاء.

ماذا يتبقي لي غير ذلك اللحم القديم، الكابوس القديم الذي  
يلازمني؛ رجل ذو عيون خضراء جالس علي كرسي بالمقلوب،  
وجسمه يتشقق كالفتار.

كان هذا الرجل يتمدد في داخلي باستمرار. ظل ينتفخ حتي

لامس جلدي، وأطّلت نظراته من عيوني. أتذكر الآن كم كان  
حزينا، وأتشمم معه رائحة حريق تفوح من داخله. أتأمل نفسي في  
المرايا جالسا علي هذا الوضع.





رحلت موزة فجأة.  
دعنا إلي حفل كبير، وفاجأتنا بأنها راحلة، وأنها سعيدة لأنها  
لن تري وجوهنا بعد ذلك اليوم.  
كان وداعها فريدا.  
ضاقت الشقة بمعارفها الذين حشدتهم في سهرة واحدة. كانوا  
أخلاقا من الناس؛ صحفيين وكتاب وناشرين، ومذيعين وسماسرة  
ويوآبين أيضا. حتي سائقي الموتوسيكلات الذين أحضروا طلبات  
الأكل من المطاعم استبقتهم كأصدقاء.  
أغلقت موزة التلفزيون الذي كان يذيع لقطات عن سقوط بغداد،  
واستهلت الحفل بكلمة أبلغتنا فيها أنها فخورة بنفسها لأنها اتخذت  
أهم وأشجع قرار في حياتها.  
انتظرنا الجملة الحاسمة بصمت، وهي نطقها ببطء:  
— لن أري وجوهكم بعد اليوم.  
صفق فايز بحماس، وداعها ضاحكا:  
— هذا خير لنا.

— أنا أتكلم بجدّ. صدقوني؛ مللتكم وقررت ألا أعود إليكم أبداً،  
وأن أشطبكم من ذاكرتي تماماً. لا يعنيني إلي أين أذهب، لكنني  
سعيدة لأنني لن أري وجوهكم مرة أخرى. احتميت بكم، لكنكم  
غير قادرين حتي علي حماية أنفسكم.

قاد فايز ناصف حملة تصفيق حماسية وحيّاها:

— هذه أهم قصيدة في حياتك، وقد تكون الأولى علي الإطلاق.  
دارت الموسيقى بإيقاع خليجي، ودار فايز بموزة راقصا. دار  
دورتين ونهج وانقطعت أنفاسه، فأسلمها إلي وانسحب وهو يطرقع  
أصابعه ويهز وسطه.

كانت موزة ترقص وسطنا، ونحن نجدف بأيادينا حولها مثل  
عبيد الغوص، ونردد خلفها أغاني "النهّام" العجوز في ليالي البحر  
الطويلة:

— خوفي عليهم يا نوحده.. خوفي عليهم

عينهم علي "القرش" في البر

و"القرش" في البحر عينه عليهم

خوفي عليهم.

محمد ناجي

روائى وصحافى مصرى يعمل مديرا للتحرير المركزى بصحيفة "العالم  
اليوم" بالقاهرة. عمل فى وكالتى أنباء "الشرق الأوسط" و"رويتر"، وصحيفتى  
"الإتحاد" الإماراتية و"الأيام" البحرينية.

صدر له:

خافية قمر ترجمت للأسبانية.

دار الهلال – مصر ١٩٩٤

نحن الصباح ترجمت للأسبانية والفرنسية.

الطبعة الأولى – دار مصر العربية – مصر ١٩٩٤

الطبعة الثانية – مكتبة الأسرة – مصر ٢٠٠٥

مقامات عربية

الطبعة الأولى – دار الهلال – مصر ١٩٩٩

الطبعة الثانية – دار نارة – الأردن ٢٠٠٦

العاقبة بنت الزين

الطبعة الأولى – دار الهلال – مصر ٢٠٠١

الطبعة الثانية – مكتبة الأسرة – مصر ٢٠٠٦

رجل أبله.. امرأة تافهة ترجمت للأسبانية.

الطبعة الأولى – دار الهلال – مصر ٢٠٠٢.

الطبعة الثانية – دار نارة – الأردن ٢٠٠٦.

## هذه الرواية

لنتفق على أن نسميه "الأفندى" ، هو نفسه غير متأكد من أى اسم آخر، ثم أن "الأفندى" يصلح لقباً لكثير من الناس؛ أنا أو أنت مثلاً.

أظن أن الاسم لا يهم، بل واسمحو لى أن أقول إن ما يحكيه عن نفسه غير مهم أيضاً، ما الجديد، كل شئ عادى، نراه بل ونفعله؛ أنا أو أنت.

حتى كلامه لا أرى له أهمية، يجهد نفسه فى فلسفة أمور واضحة، بل يزيدنا التباساً، عموماً كلنا نفعل ذلك؛ أنا وأنت.

لماذا طاوعته وكتبت؟

لماذا أدعوك للقراءة؟

الحقيقة ليست عندى أسباب مقنعة؛ أنت حر.

[mohammednagy@hotmail.com](mailto:mohammednagy@hotmail.com)

٠٠٢٠١٢٣٢٨٦١٣٣